الاسلام وتحديات العصر

الكتاب السابع

قضية الحرية
وقضايا أخرى

تاليف

دكتور عبد الغني عبود

كلية التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الطبعة الأولى
يناير ١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

— « لقد خلقنا الإنسان فى كبد . أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول : أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ؟ ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟ »

(قرآن كريم : البلد — ٩٠ : ٤ — ١٠) .

* * *

— « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون »

(البقرة — ٢ : ٢٥٦، ٢٥٧) .

* * *

— « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ »

(قرآن كريم : التين — ٩٥ : ٤ — ٨) .

الفهرس

الموضـوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيداً كل البعد عن الدين ، قريباً كل القرب من العلم الخالص ... فى مجال التربية، الذى تخصصت فيه وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه — بأنه لا يوجد — للأسف — تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية،سوى . . العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته ، كان لمفكرين إسلاميين . . كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت — بالفعل — على أساسها — كتاباً متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية، فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع إلى المطبعة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث — بعدها — نور الحقيقة فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً ، تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية)(١) ، نظراً لأن كل

---

(١) تم طبع الكتاب الآن بالفعل ، ونشرته دار الفكر العربى ، فى منتصف سنة ١٩٧٧ ، مع تغيير محدود فى العنوان ، بحيث صار (فى التربية الاسلامية) فقط ، ومع تغيير محدود أيضا فى المحتويات . فقد ضمت الى المقالات — أو المقولات — السابقة ، مجموعة مقالات ، سابقة ولاحقة ، بحيث تكون المقالات — مجتمعة — دراسة متكاملة ، تبدأ بمدخلين، عقائدى وأيديولوجى ، وتنتقل الى التربية الاسلامية ، كفلسفة نظرية ، ثم تختم بالواقع الراهن للتربية فى البلاد الاسلامية اليوم ، مع تحليل هذا الواقع ، والقاء نظرة مستقبلية عليه .

مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حيثما صدر — مليئاً بالأخطاء المطبعية ، التى أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف إفساداً .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى الحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقاً فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموماً ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموماً ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية

أما التربية الإسلامية . . فلم تجد — حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الاسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شراً على الإسلام ، وخطراً عليه ، أكبر من الشر والخطر الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم ، لعادوا إلى أنفسهم ، ولعادت إليهم قوتهم وعزتهم . . وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التى قمت بها ، أكدت لى أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم — بدونه — عاجزون .

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة . . تربوياً خالصاً .

ولكنه هدف . . دينى أيضاً .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه مايعرفه غيرهم لهم ، لا مايجب أن يعرفوه بأنفسهم ، من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة . . ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير . . لأن غيرهم أراد ذلك لهم . . بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة ، هى : أن تضع الإسلام — بجوانبه المتعددة — وجهاً لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة ... لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر .

وعندما يكتشف المسلم ، أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هى ألوان من العلاج مؤقتة . . مفلسة . فإنه - لابد - سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف على ما فيه . . وقوفه على ما فى الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ . . الخادع .

وعند هذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت ، على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى.

ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسله لهم ، ليسوا مستعدين — منذ البداية — لأن يضيعوا وقتاً فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام - كما فهموه - لا يصح أن يضيعوا فيه وقتاً، يضيعون أكثر منه فى المذاهب ذات البريق .. الخداع .

وبعد اتضاح معالم (الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة .. وذلك خلال هذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن (التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسله كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل — بعدها — فى الحديث عن (التربية الإسلامية) كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية — بعدها — فى نظرى — أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ .

— مايو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب ... السابع

لم يكن مفروضاً أن يكون هذا الكتاب ، هو الكتاب السابع من هذه السلسلة ، وإنما كان مخططا لها أن يكون كتابها السابع ، عن (الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة) .

بل ولم يكن مخططاً أن يكون هذا الكتاب كله ، من كتب السلسلة ، أو أن يصدر كتاب ضمن هذه السلسلة ، يحمل هذا الاسم .

ولكننى ما أن بدأت فى كتابة الكتاب السابع من السلسلة، عن (الأسرة)، حتى أحسست أننى أتعرض لقضايا ، ستؤدى مناقشتها فى هذا الكتاب السابع، إلى تشتيت الجهد، فى قضايا جانبية، ستبعد بنا عن الطريق المرسوم له .

ومن ثم لم يكن أمامى ، بعد أن انتهيت من الفصل الثانى من الكتاب ، سوى أن أتوقف عن الكتابة، وأن أترك ما كتبته كله، وأدع تخطيطى للكتاب . . وأشغل نفسى بعدد من القضايا ، التى ستثار فى هذا الكتاب المخصص (للأسرة) ، كما ستثار فى سلسلة الكتب التالية له ، والمتعلقة بالمجتمع ، وألوان نشاطه ، وأنماط الحكم ، وغيرها .

وحول هذه القضايا ، دار هذا الكتاب السابع من السلسلة ، بعد أن فرض نفسه عليها هنا ، ليأخذ منها الرقم ، الذى كان مفروضاً أن يخصص لكتاب الأسرة — الكتاب التالى بإذن الله .

وكانت أخطر هذه القضايا على الإطلاق ، فى نظرى، هى قضية الحرية، تلك الخدعة الكبرى ، التى نخدع بها أنفسنا ، وتخدعنا بها حكوماتنا ، وتخدعنا بها الحضارة الحديثة كلها ، لحاجة فى نفس يعقوب ، يقضيها كل خادع ، من وراء خداعه ، بطبيعة الحال .

ومن ثم كانت قضية الحرية ، هى العنوان المختار ، للكتاب السابع كله .

يضاف إلى ذلك ، أن قضية الحرية ، هى القضية الأم ، بالنسبة للقضايا الأخرى ، التى يمكن أن تثار ، والتى عولجت فى هذا الكتاب ، كقضية المساواة ، وقضية العدالة ، وقضية الديموقراطية ، وغيرها وغيرها ، فهذه القضايا ، تتخذ لها أصلا واحداً ، تنبع منه ، هو هذه الحرية .

ومن ثم — أيضاً — كانت (قضية الحرية) هى الأساس ، وهى العنوان المختار ، وكانت بقية العنوان (وقضايا أخرى) .

وقد صدرت هذه القضايا كلها ، بفصل تمهيدى ، رأيت ضرورة البدء به ، عن (الطبيعة الإنسانية) ، حتى نستطيع — من خلاله — أن نحكم على كل قضية من القضايا ، أو نحكم لها . . فى ضوء هذه الطبيعة الإنسانية .

ولقد لفت نظرى ، فى أثناء معالجة القضايا ، أن للإسلام موقفه المحدد الواضح ، من كل قضية ، وأنه — فى هذا الموقف المحدد الواضح — أقرب إلى هذه الطبيعة الإنسانية ، وأكثر مطاوعة لها ، واستجابة لمتطلباتها ، على عكس ما أرادت الأجهزة المختلفة ، التى دأبت على محاربة الإسلام ، أن تظهره .

كذلك لفت نظرى ، أنه فى الوقت نرى الإسلام فيه واضحاً محدوداً ، فى كل قضية من القضايا ، حتى ولو لم يرض هذا الموقف المحدد الواضح (أمزجة) (المتفيهقين) ، فإننا نرى النظم والفلسفات غير الإسلامية ، تسرع فتسترضى هذه الأمزجة ، ولكن التطبيقات العملية للكلام المكتوب ، قد تكون على العكس منه تماماً .

مثال ذلك ، أن كل النظم المعاصرة ، ترفض لفظ (عبودية) الإنسان لله ، لأن العبودية نقيض الحرية . . فى الوقت الذى نرى الإسلام لا يرضى بغير هذه (العبودية) .

وفى الوقت الذى نرى (عبودية) الإنسان لله فى الإسلام ، هى السبيل الوحيد إلى (تحرير) الإنسان.. نرى (الحرية) فى النظم والفلسفات الأخرى، حرية مزعومة . . لا رصيد لها فى واقع المجتمعات ، التى تؤمن بهذه النظم والفلسفات .

أى أن الإسلام يعتمد على الوضوح وحده، بينما تعتمد النظم والفلسفات الأخرى على التدجيل والتلبيس، على حد تعبير العلامة أبى الحسن الندوى ، فى دراسته القيمة لسورة الكهف، على نحو ما سنرى فى داخل هذا الكتاب السابع.

ولذلك نجد الإسلام قد حرر العبيد، من استذلال الغير، ممن يملكون.. ومن استرقاق الحكام . . ومن استرقاق الشيطان أيضاً ، بينما نجد النظم والفلسفات الأخرى ، قد حررت الإنسان على الورق ، لتوقعه — فى النهاية — فى قبضة حاكم مستبد ، أو طغمة متسلطة... أو فى قبضة النفس وشهواتها.. وتكون النتيجة ، ما يعيشه عالمنا المعاصر مثلا ، من إفلاس واضح ، يهدد حضارتنا المعاصرة كلها ، كما يهدد الجنس البشرى جميعه.. بالخراب والتدمير، ولا منقذ لهم من هذا الخراب والتدمير... سوى الإسلام.

ورغم التعب الذى تعبته فى التخطيط لهذا الكتاب ، وفى جمع مادته العلمية ، وتبويبها وتنسيقها ، ثم استغلالها . . فإننى مصر على أن ما ذهبت إليه فى قضية من هذه القضايا، وفى هذه القضايا مجتمعة ، لا يعدو أن يكون مجرد وجهة نظر ، تعبت — فعلا — فى الوصول إليها ، وأرجو أن أكون فيها قد وفقت فيما اتخذت من وجهة نظر .

ويكفينى — فى هذا الكتاب — رغم ذلك — أن أكون قد وقفت فى (لفت النظر) إلى هذه القضايا ، ليعاد التفكير فيها من جديد... بعد أن صارت أمامنا — بحكم القدم والتوارث والتشبث بالأوهام — من قبيل المسلمات ، التى لم تعد تقبل الجدل .

ولو لم يستطع هذا الكتاب السابع من كتب السلسلة ، سوى تحقيق هذه (الوقفة) مع النفس ، و(الالتفاتة) إلى الاطار الفكرى ، الذى أريد لنا أن ننشأ فيه — فإنه يكون — فى نظرى — قد حقق هدفه .

وأعتقد أن هذه الوقفة مع النفس لو تحققت ، ولو تحققت الالتفاتة إلى هذا الإطار الفكرى ، الذى صبتنا فيه نظم التعليم الحديثة ، ووسائل الإعلام والتثقيف الواسعة الانتشار والتأثير .. فإن النتيجة التى سيصل إليها كل منا .. لن تبتعد كثيراً عن هذه النتائج التى توصلت إليها فى هذه القضايا .

ذلك أن هذه النتائج ، لم تأت نتيجة انفعال عارض ، أو تحمس لجانب ضد آخر .. وإنما هى أتت نتيجة لوقفة .. طويلة .. ودراسة ، يشهد الله كم تعبت فيها .

ومن ثم ربما أدت هذه الوقفة ، إلى نفس النتيجة التى توصلت إليها ، لا إلى نتيجة قريبة منها فقط .

وأرجو أن يكون الله سبحانه ، الذى عليه اعتمدت وتوكلت ، منذ بدأت هذه السلسلة ، قد وفقني فيما أردت ، وفيما فكرت ، وفيما كتبت ، بحيث أكون قد نجحت فى تأدية الرسالة ، وإليه — منذ البداية — قصدت بهذا العمل ، الذى أرجو أن يجعله خالصاً عنده ، ومنه — وحده — سبحانه ، أرجو حسن الجزاء .

دكتور عبد الغني عبود

القاهرة فى : صفر ١٣٩٩ هـ

— يناير ١٩٧٩م

الباب الأول

قضايا إنسانية

تقديم :

فاض كيل القرن العشرين بالشعارات ، التى ليس لها رصيد فى عالم الواقع ، حتى طفح ، وهو أمر يتمشى تماماً ، مع هذا القرن العشرين ، وما يكتنفه من ظروف .

« إن القرن العشرين » — على حد تعبير المرحوم عباس العقاد — « كان حقيقاً أن يسمى بعصر (الأيديولوجية) ، أو عصر الحياة (على مبدأ أو عقيدة) » ، و « ليس أكثر من (المبادئ والعقائد) ، التى نسمع عنها ، فى هذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و (الأيديولوجيات)»(١) .

على أن هذه الأيديولوجيات ، رغم ما يبدو بينها من تناقض ، تجتمع على أمر واحد ، هو (محاولة السيطرة على العالم) ، بغية إخضاعه ، لهذه الجهة أو تلك .

ومن ثم نجد انقسام العالم — أو اقتسامه بتعبير أصح — بين الشرق والغرب — ثم اقتسام الشرق بسبب نفس الهدف — بين الاتحاد السوفيتى والصين ، واقتسام الغرب — لنفس السبب — بين أوربا وأمريكا . . وهكذا .

بل إن فى بلاد العالم الثالث ، من داخله الغرور ، فراح يدخل نفس (اللعبة) ، وهو غير أهل لها ، كما فعل جمال عبد الناصر (١٩١٨ — ١٩٧٠) ،

---

(١) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٧ — من التمهيد .

حينما جندته المخابرات المركزية الأمريكية ، «كلاعب جديد ، يظهر على الساحة»(١) ، فإذا به — بعدمؤتمر باندونج سنة ١٩٥٤ ، وبعد لقائه» مع نهرو وتيتو وسوكارنو ، وغيرهم من زعماء العالم الثالث»(٢) — يحلم بزعامة العالم الثالث ، وبزعامة العالم كله بعدذلك، من خلال هذا العالم الثالث . . الذى يعتبر مستودع ثروات العالم .. ومن ثم كانت مأساته ، ومأساة مصر معه وبعده .

وإذا كان الصراع بين الدول والقوى ، للسيطرة على العالم ، على هذا النحو ، فى القرن العشرين ، فإن (الشعارات) ، تكون هى (العملة) الوحيدة ، التى تقدم فى عالم اليوم ، خداعاً للمطحونين فى هذا العالم ، وما أكثر هؤلاء المطحونين فيه ، سواء فى ذلك المطحونون بفعل الغير ، والمطحونون طحناً ذاتياً ، بعد أن سيطرت (المادية) على العالم ، بشكل صار فى حد ذاته ، تهديداً بتدمير الإنسانية ، وإجهاض حضارتها .

ومن أجل ذلك ، كان تصديرنا لهذه السلسلة ، بكتابها الأول ، عن (العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة) — فضحاً لهذه الأيديولوجيات ، وتوضيحاً لمراميها ، التى تهدف إلى السيطرة على «الشعوب» التى تقع خارج المعسكر بالدرجة الأولى ، ومعظمها من الشعوب الإسلامية»(٣).

ومن أجل ذلك أيضاً ، كان لابد من تخصيص كتاب من كتب السلسلة ، لفضح تلك الشعارات .

---

(1) COPELAND,MILES : The Game of Nations, The Amorality of Power Politics; Sixth Edition, Weidenfeld and Nicolson, London, October 1970, p. 62.

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٧٨ ، ص ١٧٢ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ١٢٨ .

ومن أجله ، كان لابد من البدء بمعيار ، يحكم حديثنا عن هذه الأيديولوجيات ، وهذا المعيار هو إنسانية الإنسان ، الذى لو اتفق الشعار معها ، لكان رافعوه مخلصين فى رفعه ، ولو اختلف معها ، لكان مرفوعاً .. لمجرد الكذب والخداع .

الطبيعة الانسانية :

وحول موضوع (الطبيعة الإنسانية) هذا ، دار كتابنا الرابع من السلسلة كله ، وفيه رأينا أن الإنسان — كما يقول بذلك العلم الحديث — ليس مجرد جسد ، أو عقل ، أو شعور ، أو لا شعور ، أو مجموعة من الضغوط الاجتماعية . . أو روح ، وإنما هو كل هذه الجوانب ، مجتمعة على نحو من الأنحاء ، ومن خلال اجتماعها على هذا النحو ، تبدو (الشخصية الإنسانية) أمام الناس ، (نسيجاً) فريداً ، لا يمكن أن يتكرر ، لأنها — كما يقول بذلك علماء النفس المحدثون — « سلوك كلى كتلى معقد ، يخضع لعوامل يرثها الإنسان ، كما يخضع لعوامل احتكاك الإنسان ببيئته الخارجية » ، ولأنها « دليل على نمو كلى معقد ، خضع له الإنسان ، من لحظة تكوينه ، إلى اللحظة التى سلك فيها هذا النمط المعين من السلوك » (١) .

فالشخصية — فى نظرهم — « هى جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية ، التى تميز الشخص عن غيره ، تمييزاً واضحاً » (٢) ، والتى نراها ، فى حالة تفاعلها بعضها مع بعض ، وتكاملها فى شخص معين ، يعيش فى بيئة اجتماعية معينة » (٣) .

---

(١) الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى — الطبعة الثامنة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٥ ، ص ٧٠ .

(٢) دكتور أحمد عزت راجح : أصول علم النفس — الطبعة الخامسة — الدار القومية للطباعة النشر — ١٩٦٣ ، ص ٤٦٩ .

(٣) الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام — من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٣٦٣ .

فالطين عنصر أساسى فى الإنسان ، لا يمكن إغفاله ، ولو أغفلناه — تحت أى شعار — فإننا سنكون — حينئذ — نغفل الإنسان ذاته .

والعقل عنصر أساسى فى الإنسان ، لا يمكن إغفاله ، ولو أغفلناه تحت أى شعار — فإننا سنكون — حينئذ — نتكلم عن الحيوان ، لا عن الإنسان .

والمجتمع عنصر أساسى فى الإنسان ، لا يمكن إغفاله ، وإغفال تأثيره ، ولو أغفلناه — تحت أى شعار — فإننا سنكون — حينئذ — نتكلم عن جماد ، لا عن إنسان .

والروح عنصر أساسى فى الإنسان ، لا يمكن إغفاله ، ولو أغفلناه — تحت أى شعار — فإننا سنكون — حينئذ — غير متحدثين على الإطلاق ، لأن هذه الروح ، هى التى تربط هـذا الإنسان ، كما تربط الحيوانات والطيور . والأحجار ذاتها ، بذلك (العقل الكونى) ، الذى رأى أينشتين ، أنه لابد أن يكون موجوداً ، فى مركز هذا الكون(١) ، وبسببه نرى تلك « النواميس » ، التى تحكم الكون ، فلا نرى تناقضاً بين أجزائه ، وإنما نرى تكاملا واضحاً ، يدل على « (وحدة الكون) ، أو (وحدة الوجود) » ، وهى « معجزة المعجزات ، لا فى هذا الكون ، ولكن فى خالقه سبحانه »(٢) .

فهى — أى الروح — هى ذلك الرباط (المقدس) ، الذى يربط الإنسان بربه ، تماماً كما يربط خلق الله الكثير ، بخالقه سبحانه .

---

(١) ألبرت أينشتين : النسبية ، النظرية الخاصة والعامة — ترجمه : دكتور رمسيس شحاتة — راجعه : دكتور محمد مرسى أحمد — رقم (٥٥٩) من (الألف كتاب) — الطبعة الثانية — دار نهضة مصر للطبع والنشر — ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الإسلام والكون — الكتاب الثالث من سلسلة « الإسلام وتحديات العصر » — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٣١ .

وإذا كان الإنسان — أى إنسان — لا يعدو أن يكون ذلك (المزيج العجيب)، بين هذه العوالم مجتمعة ، أو تلك (المحصلة الجدلية) لمجموع هذه القوى ، فإن النظرة إلى الإنسان من خلال (زاوية) واحدة فقط ، تكون ظلماً للإنسان ، ومجافاة لواقعه ، مما يباعد بين الناظر إليه ، وبين حقيقة هذا الإنسان .

وفى ضوء هذا الإنسان ، المتعدد الجوانب ، والمتكامل فى الوقت ذاته، يجب أن تتحدد تلك القضايا ، التى يدور حولها هذا الكتاب .

امكانات الانسان :

لم نعدُ الحقيقة فى كثير ولا قليل ، حين قلنا : إن الانسان (محصلة جدلية)، لهذه القوى والملكات والمواهب ، التى يتألف منها كيانه .

ذلك أن (المادة الأولية) لكل إنسان واحدة ، فلكل إنسان جسد، ولكل إنسان عقل وروح .. ورغم ذلك ، نجد (المحصلة) مختلفة ، اختلافاً يصل إلى حد التناقض أحياناً .

بل إن الرحم الواحد يقذف بتوأم ، فإذا بأحد شقيه — بعد الكبر — عصبى المزاج ، أنانى ، محب لنفسه ، كاره للعالم ، تسيطر عليه المادة ، وإذا بالشق الثانى — بعد الكبر أيضاً — هادئ وديع رقيق ، محب للناس، محب للعالم ، تسوده نزعة روحية شفافة .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن إمكانيات الإنسان — أى إنسان — مجتمعة، تعد محدودة محدودة — إذا قورنت بإمكانيات حشرة ، ناهيك عن وحش كاسر ، أو صخرة مدمرة ، أو شعاع حارق ، وناهيك أيضاً عن إمكانيات عفريت من الجن ، أو ملاك من الملائكة .

ذلك أن لدى كل مخلوق من هذه المخلوقات، التى تبدو أمامنا تافهة محدودة القيمة . . إمكانيات (نوعية) هائلة . . تنقص الإنسان، فالميكروب — مثلا — أتفه الكائنات الحية — حيوان وحيد الخلية ، وهو « كائن حى مستقل بنفسه ، إذ أن أدق ميزان حساس ، لا يستطيع أن يزن ميكروباً » ، و « أن جراماً واحداً يحتوى على عدد من أفراد البكتريا ، قد يصل إلى حوالى ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرداً »(١) .

ولكن هذه الكائنات الحية ، التافهة المحدودة ، هى « أوسع الكائنات الحية انتشاراً »(٢) ، والإنسان محدود الانتشار ، كما أنها تتحمل « درجات حرارة عالية » ، و « تصمد صموداً غريباً ضد درجات الحرارة المنخفضة »(٣) — وهو مالا يستطيع الإنسان تحمله — كما أنها تتكاثر بطريق الانقسام ، « ولو سارت الأمور مع ميكروب الكوليرا سيرها الطبيعى ، فإن فرداً واحداً ، يستطيع أن ينتج ذرية ، تغطى سطح الكرة الأرضية ، بما فى ذلك البحار واليابسة ، بطبقة متصلة غير منفصلة ، فى غضون ثلاثين ساعة »(٤) — وهو مالا يستطيعه الإنسان أيضاً .

ولو استطردنا فى استعراض إمكانيات الكائنات الحية الأخرى، الأسمى من الميكروب ، ما انتهينا ، ولكنها توصلنا — فى النهاية — إلى ما بدأنا به ، من أن إمكانيات الإنسان محدودة محدودة، إذا ما قورنت بالإمكانيات المتاحة، لأى كائن حى آخر .

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة — رقم (٦٢) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يونية ١٩٦٢ ، ص ٣٤ .

(٢) ويليام بوين سارلز : علم الأحياء الدقيقة — ترجمة دكتور صلاح الدين طه وآخرين — مراجعة يونس سالم ثابت — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ ، ص ١ .

(٣) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة (المرجع الأسبق) ، ص ٣٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

ورغم ذلك، فإن هذا الإنسان ، ذا الإمكانيات المحدودة — قد منحه الله ما يدارى به عجزه ، ويغطى به نقصه ، وهو (العقل) .

وبالعقل ، استطاع الإنسان (التكيف) لظروف البيئة التى يعيش فيها ، فيقى نفسه شر أخطارها ، ويحفظ نفسه وجنسه من الانقراض .

وبه ، استطاع الإنسان أن (يقهر الطبيعة) من حوله ، على حد مايحب العلماء المعاصرون أن يعبروا ، وأن يلبس هذه الطبيعة اللجام ، وأن يسخرها لتحقيق أغراضه ، بعد أن عاش فى أحضان هذه الطبيعة الشطر الأكبر من حياته ، عنصراً سلبيا ، يعيش على ما تجود به عليه ، ويشقى إن هى لم تجد، ويكون شقاؤه أكبر ، إذا هى غضبت ، ومن ثم كانت « عبادة العناصر الطبيعية »[1] شائعة فى العالم القديم ، من شمس ونجوم وكواكب وغيرها ، « لأنها تتصرف فى شئونه ، وتمنحه بعض ما يحب ، وتبتليه ببعض ما يكره ، وتتدخل بإرادتها فيما يريد ومالا يريد ... »[2] .

وبه — أى بالعقل — استطاع الانسان أن يشيد حضارة رائعة ، اقتحم بها أغوار النفس ، وأعماق الأرض ، وآفاق السماء .

وبه — بحق — استطاع أن يكون (خليفة) لله فى الأرض... إن أراد.

وبه — بحق أيضاً — استطاع أن يكون جسداً يتجسده هذا الشيطان، ليحقق — من خلاله — أغراضه ومخططاته . . ضد الإنسان . . الخليفة ، الذى يعى جيداً تبعات هذا الاستخلاف ، ويقوم بها ، قدر مستطاعه .

فالقدرة على الاختيار ، هى أوضح سمات الإنسان ، وبقدرته على الاختيار هذه ، (يستطيع) أن يسير فى طريق الهدم، أو فى طريق البناء .

---

(١) عباس محمود العقاد : الله — مطابع الأهرام التجارية — ١٩٧٢ ، ص ٦٤ .

(٢) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣، ص ١١٥ .

فى طريق الخير . أو فى طريق الشر . . ، كما يستطيع أن يرسم على شفاه الآخرين بسمة ، أو يرسم على هذه الشفاه تكشيرة.

وليست مخلوقات الله الأخرى ، بقادرة على هذا الاختيار ، كالإنسان ، بل إنها تسير فى حياتها ، تدفعها (الفطرة) أو (الإلهام) ، ويسيرها ذلك الرباط المقدس ، الذى يربط كل مخلوقات الله ، بذلك (العقل الكونى الأعظم) ، على حد ما يحب العلم الحديث أن يسمى .

ومن ثم نرى حياة النحل ، تنتظم على نحو رائع . . لا اختلاف فيه ، ولا تغير يطرأ عليه .

كما تسير حياة النمل وتنتظم ، على نحو آخر رائع ، لا اختلاف فيه ، ولا تغير يطرأ عليه .

كما تسير على هذا النحو الرائع من الانتظام ، والاستمرارية ، حياة الذباب والصراصير . . وحياة الحيوانات — كل الحيوانات ، وحياة . . الملائكة .

وليس على هذا النحو من الانتظام والاستمرارية . . حياة الإنسان ، لأن (عقله) ، على قدر ما يمكنه من أن (يختار) ، يعد عقبة تقف بينه وبين (سخونة) الاتصال ، بهذا العقل الكونى .

ولو عاد الإنسان إلى فطرته ، التى فطره الله عليها ، لكسب القدرة على الاختيار ، والقدرة على التقدم والازدهار ، والقدرة على الاتصال بهذا العقل الكونى أيضاً .

ومن أجل هذا . . تنزلت رسالات السماء ـ لتعيد لهذا الإنسان إنسانيته الحقة ، وتضفى على هذه الإنسانية شيئاً من الامتياز ، افتقدته ، بسقوطها تحت أقدام الشيطان .

الجسد الإنساني :

إذا كان الجسد الإنسانى أساسيا فى تكوينه ، بحيث يؤدى إسقاطه من الحساب عند الحديث عن الإنسان ، إلى أن يفقد الحديث كله أى معنى . . فإن أية قضية من القضايا ، المتصلة بالإنسان — أو بالمجتمع — لا بد أن تشمل هذا الجسد ، وتعطيه حقه ، الواجب له .

وفى مسألة الجسد وحاجاته ، يتفق الإنسان مع الحيوانات والطيور والحشرات ، فالإنسان — شأنه فى ذلك شأنها — لا بد أن يحصل لهذا الجسد ، على حاجاته الأساسية، التى يستطيع — بها — أن يستمر فى الحياة، وبدون حصوله على هذه الحاجات ، يتوقف . . ويكون الموت ، أو الهلاك .

فهو يحصل «على الطعام والشراب ، ويأخذ من هواء الجو الأوكسجين ، ومن خلال العمليات المعقدة ، التى يمر بها ذلك كله ، يتحول الأوكسجين إلى عادم ثانى أوكسيد الكربون ، ويتحول الطعام والشراب ، إلى عادم البول والبراز والعرق ، ويحصل الإنسان من خلال هذه العمليات المعقدة ، على (الطاقة) ، التى يدور بها (مصنعه) ، وهى الدم ، يتجدد بشكل مستمر »(١) .

ولذلك يرى الدكتور ألكسيس كاريل ، أن « المادة الغذائية ، التى يحملها الدم إلى الأنسجة » ، « تستمد » « من ثلاثة مصادر : من الهواء الجوى ، عن طريق الرئتين ، ومن سطح الأمعاء ، وأخيرا من غدد الأندوكروين . وجميع المواد التى يستعملها الجسم ، فيما عدا الأكسجين ، تأتى عن طريق الأمعاء ، سواء بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة »(٢) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام والإنسان والمعاصر (مرجع سابق)، ص ٣٣ .

(٢) ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١٠٤ .

كما يرى أن الإنسان، قد خلق « من تراب الأرض ، ولهذا السبب تتأثر وجوه نشاطه الفسيولوجية والعقلية تأثرا كبيرا ، بالتكوين الجغرافى للبلد الذى يعيش فيه ، وطبيعة الحيوانات والنباتات ، التى يطعمها عادة . كذلك يتوقف بناؤه ووظائفه ، على اختياره لعناصر معينة ، من بين الأطعمة النباتية والحيوانية ، الموضوعة تحت تصرفه» (١) .

وقبل ألكسيس كاريل ، عالم الطب الفرنسى المعاصر ، بما يقرب من ستة قرون ، أدرك العلامة العربى ، عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣١ — ١٤٠٥ م = ٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) ، هذه العلاقة ، لا بين جسد الإنسان وحده ، ولكن بين كيانه كله ، وبين ذلك التراب الأرضى ، عن طريق هذا الإطار الجسدى بطبيعة الحال ، حيث يرى أن أهل الصحراء يعيشون « فى شظف من العيش » ، و «أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم» ، « وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم ، من أهل القفار » ، « أحسن حالا فى جسومهم وأخلاقهم ، من أهل التلول ، المنغمسين فى العيش ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن ،وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات» (٢) .

وكأنما يريد ابن خلدون أن يقول ، ويؤيده العلم الحديث فيما يقول ، إن هذا الجسد الإنسانى ، هو (المدخل) الأساسى إلى شخصية الإنسان ، وبمعرفة ما يتصل ، يمكن الوقوف على كثير من الحقائق المتصلة بتلك الشخصية ، وبدون هذه المعرفة ، تغدو تلك الشخصية (لغزاً) ، لا يمكن حله .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، من كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — المطبعة الشرفية — ١٣٢٧ هـ ، ص ٩٨ .

وكأنما يريد أن يقول أيضا : إنه لايمكن أن تتفق شخصيتان إنسانيتان ، لاختلافهما فى (كل شىء)، يتصل بهـذا الجسـد ، سواء فى كفاءة أجهزته ، وفيما تحصل عليه هـذه الأجهزة من (وقود) ، أو (طاقة) ، وكيفية حصولها على هذا الوقود ، أو تلك الطاقة ، والكم الذى حصلت عليه .

ورغم أهمية هذا (الجسد) الإنسانى ، لتلك (الشخصية) الإنسانية ، على هذا النحو ، فإن الجسد الإنسانى ، رغم ذلك ، يظل محدود القيمة ، فى حياة تلك (الشخصية) الإنسانية .

ذلك أن الحيوان يجوع فيأكل ، ولا تستطيع قوة أن تمنعه عن الطعام ، إذا هو توفر أمامه ، وكان جائعا ، فهو يتحرك لإشباع حاجات جسده ، بطريقة شبه آلية ، يمكن التعبير عنها ببساطة ، بأن حياته الجسدية مجرد فعل ، ورد فعل .

فالجوع أو العطش فعل ، والأكل أو الشرب ، رد فعل .

وما هكذا حياة الجسد الإنسانى .

فقد يكون الإنسان جائعا ، ولـكن خبرا مؤلما ، يفقده شهية الأكل .

بل إن الإنسان قد يسمو فوق الجوع ، إذا كان يؤدى عبادة ، كما يحدث فى الصوم ، أو إذا كان ينتصر لمبـــدأ أو فكرة ، كما يحدث فى حالات الاعتصام ، أو الإضراب عن الطعام .

بل إن الإنسان قد يشتهى فاكهة معينة ، غالية الثمن ، لا تطيقها إمكانياته المالية ، فإذا أتى بها ، ووجدابنه يأكل منها .. أحس شبعاً ورياً . . وزهد فيما كان يشتهيه .

(فعزم الأمور) — على حـــد التعبير القرآنى ، فى منـاسبات

كثيرة(١) ، هو السمة الأساسية ، التى تفرق بين الإنسان والحيوان — بل إنها سمة أساسية ، تفرق بين إنسان وإنسان ، لأن الناس جميعا يتفاوتون فيما بينهم من (عزم الأمور) هـذا — ومدى اقتدارهم عليه ، والوجهة التى يعزمون أمورهم نحوها : ألله ، أم للشيطان ؟

ولكن عزم الأمور هذا، لا يعنى أن يرتفع الإنسان فوق حاجات جسده إلى الأبد ، لأنها طاقة محدودة ، ثم يكون بعدها انهيار ذلك الجسد ، وانتهاء الشخصية الإنسانية .

ومن ثم ، فهو عزم للأمور ، فى حدود طاقات الجسد وإمكانياته . . وليس بمعزل عن هذه الطاقات والإمكانيات .

وفى ظل هذه الرياضة للجسد ، يمكن أن تفهم فلسفة الصوم فى الإسلام ، بوصفه إقراراً بحق الجسد فى أن يحصل على متطلباته ، حتى أنه يأمر الإنسان بأن يأكل ويستمتع :

— « ... كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » (٢) .

— « ... كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا » (٣) .

كما أنه يعتبر عدم الاستمتاع بنعمة الله ، كفراً بهذه النعمة :

— « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل

---

(١) قرآن كريم : — آل عمران — ٣ : ١٨٦ .
— الشورى — ٤٢ : ٤٣ .
— لقمان — ٣١ : ١٧ .

(٢) قرآن كريم البقرة — ٢ : ١٦٨ .

(٣) قرآن كريم : — المائدة — ٥ : ٨٨ .
— النحل — ١٦ : ١١٤ .

الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» (١) .

يقول الشهيد سيد قطب ، فى شرح هاتين الآيتين ، وتوضيح مغزاهما:

« جاء فى تفسير القرطبى ، المسمى (أحكام القرآن) : (وقيل إن العرب فى الجاهلية ، كانوا لا يأكلون دسماً فى أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة ، فقيل لهم : « خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا » ، أى لا تسرفوا فى تحريم ما لم يحرم عليكم)... والإسراف يكون بتجاوز الحد ، كما قد يكون بتحريم الحلال . كلاهما تجاوز للحد ، هذا باعتبار ، وذاك باعتبار .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة فى كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب ، بل يستنكر تحريم هذه الزينة ، التى أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق . فمن المستنكر أن يحرم أحد — برأيه — ما أخرجه الله للناس من الزينة ، أو من الطيبات » .

« ويتبع الاستنكار ، بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا — بحكم إيمانهم بربهم ، الذى أخرجها لهم — ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها الذين كفروا » .

« ولن يكون الشأن كذلك ، ثم تكون محرمة عليهم ، فما يخصهم الله فى الآخرة بشىء هو حرام ! » .

« فأما الذى حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ،

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٣٢ ، ٣٣ .

وليس هو الطيب من الطعام والشراب — فى غير سرف ولا مخيلة — إنما الذى حرمه الله حقا ، هو الذى يزاولونه فعلا ، — «الفواحش من الأعمال، المتجاوزة لحدود الله ، ظاهرة للناس أو خافية ... »(١) .

ولكن هذا الصوم الإسلامى ، لا يقف عند حد الإقرار بحق هذا الجسد، فى الاستمتاع بما رزق الله الإنسان من طعام طيب وزينة . . . بل يتعداه إلى (قدرة) الإنسان على (التعالى) ، عن هذه الحاجات الجسدية .. فى حدود ما أمر الله به أيضاً . . فى الصوم ، لا التعالى المطلق ، الذى يعنى الزهد والتقشف فى هذه الطيبات من الرزق ، مما يعد — فى حد ذاته — كما سبق — محرما فى الإسلام .

فالإنسان لابد أن يأكل ، ولكنه (يقدر) على ألا يأكل أيضاً .

وهنا الفارق الأساسى بين الإنسان والحيوان ، وبين جسد هـــذا ، وجسد ذاك .

العقل الانسانى :

وبالعقل ، استطاع الإنسان — كما سبق — أن يرتفع فوق حاجات جسده ، أو هو يستطيع به أن يرتفع فوقها ، كما استطاع أن يهبط إلى مستوى هذه الحاجات ، أو دونها بكثير .

فالأمر متوقف كما سبق ، على ما أوتيه كل إنسان من (عزم الأمور) .

ويرد (عزم الأمور) هذا فى سورة لقمان ، بعد وصايا سيدنا لقمان المشهورة، لابنه ، بإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . . ومن ثم يفسر الشهيد سيد قطب، عزم الأمور هنا ، بما يتمشى مع هذا الجو

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الثالث (الأجزاء : ٨ — ١١) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٢٨٢، ١٢٨٣ .

العام ، بأنه « قطع الطريق على التردد فيها ، بعد العزم والتصميم »(١) .

ثم يرد (عزم الأمور) فى سورة الشورى ، بعد حديث الله سبحانه عن المتقين ، وما يتسمون به من تجنب للفحشاء ، واستجابة لله ، وقدرة على الصبر والصفح الجميل . ومن ثم يفسر الشهيد سيد قطب عزم الأمور هنا ، بأن « الأصل فى الجزاء ، مقابلة السيئة بالسيئة ، كى لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً ، يكفه عن الإفساد فى الأرض ، فيمضى وهو آمن مطمئن .

ذلك مع استحباب العفو ، ابتغاء أجر الله ، وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد ، وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة ، على جزاء السيئة بالسيئة ، فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه ، فى إصلاح المعتدى والمسامح سواء . فالمعتدى حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ، ولم يجئ ضعفا ، يخجل ويستحي ، ويحس بأن خصمه الذى عفا ، هو الأعلى ، والقوى الذى يعفو ، تصفو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ ، خير لهذا وهذا »(٢) .

(فعزم الأمور) — على ذلك — موقف نفسى يتخذ ، وعلى أساسه تكون كل تصرفات الإنسان ، أو تتحدد ملامح شخصيته ، فى مختلف مواقف الحياة .

ولا موقف نفسياً ، بلا تفكير أو تأمل .

ولذلك يربط عبد الله يوسف على ، بين (عزم الأمور) هذا ، وبين تلك النظرة الكلية الشمولية ، إلى الله والكون والحياة والأحياء ، كما يراها

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الخامس (الأجزاء: ١٩ — ٢٥) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٧٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٦٧ .

المؤمن ، فيرى أن عزم الأمور ، كما ورد على لسان لقمان ، إن هو إلا نتيجة « لفلسفة ، توصل إليها لقمان ، كما توصل إليها من قبله أرسطو ، وكما يشير إليها الإسلام بالفعل ، وهى نتيجة لنظرة صحيحة ، إلى علاقتنا بالله ، وبعالمه الذى خلقه ، وبغيرنا من المخلوقات ، التى خلقها سبحانه ، وخاصة الإنسان ، وهى أن نكون فى كل ذلك معتدلين »(١) .

وفى المقابل ، يمكن أن نرى (موقفاً) آخر ، أو لوناً آخر ، من (عزم الأمور) ، نجد فيه (الفلسفة) ، وقد تشكلت على نحو مغاير .. أو معاكس .. أو مضاد .. صار فيها يدعو إلى عكس ما دعا إليه لقمان ، ومن على شاكلته من المؤمنين .

ولكن قوة من القوى ، مهما بلغت عظمتها ، ليست بقادرة على أن تحول بين العقل الإنسانى ، وبين أن يفكر ، طالما كان العقل مكونا أساسياً من مكونات الإنسان ، وجزءاً لا يتجزأ من كيانه .

وما دام الله قد خلق للإنسان عقلا ، فقد خلقه له ، ليفكر به ، تماما كما خلق له الأذن لتسمع له ، والعين لترى بها ، والقدم ليسير عليها ، واليد ليبطش بها ، والأسنان ليضغ بها ، وهكذا .

وقد رأينا ، فى أكثر من كتاب من كتب السلسلة ، أن المأساة الحقيقية للمسيحية ، تكمن فى تلك (الحرب) الضارية ، التى أعلنتها على العقل الإنسانى .

ذلك أن المسيحية جاءت ، فى وقت بلغ فيه الازدهار العقلى مداه ، متمثلا فى الحضارتين اليونانية / الرومانية ، وفى الدين اليهودى ، بعد أن سيطرت

---

(1) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; Hafner Publishing Company, New – York, U. S, A., 1946, p. 1084.

عليه المادة ، و حرفت كتبه ، وبلغ العقل اليهودى ذروته فى الغدر والخسة والتآمر على كل حق ، حبا فى هذه الحياة الدنيا ، وإصراراً عليها .

ولذلك جاءت المسيحية ، « فى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية ، واستحالت طقوساً جامدة ، لا حياة فيها ، ومظاهر خاوية ، لا روح فيها »(١) ، «عقب فراغ طويل المدى ، من الجدب الدينى، لبنى إسرائيل » (٢).

وعلى الصعيد السياسى ، جاءت فى حماية الدولة الرومانية ، حيث « كان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون ، مع السلطان المطلق ، وضاع النظام ، مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين »(٣) .

ومن ثم جاءت المسيحية ، كرد فعل لهذا الواقع المادى المؤلم — مجرد رد فعل .

و« فى وسط هذه المادية الغليظة » ، على حد تعبير عبدالكريم الخطيب — « لم يكن الرفق هنا لينفع ، فى طرق الحديد البارد »(٤) — وإنما كانت الشدة هى النافعة .

وقد تمثلت هذه الشدة المسيحية ، فى ذلك العنف ، الذى قوبل به الجسد وحاجاته ، وتلك الحرب التى أعلنت على العقل وما يقول به ، فلم تأت

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ ، ص ٦ .

(٢) إبراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبة الوعى العربى ، ص ٨٠ .

(٣) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ وكشوف العصر الحديث — رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) — يناير ١٩٦٨ ، ص ٦١ .

(٤) عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ، قضية الألوهية ، بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٣٦٢ .

« نظاما فلسفياً ، يقوم على العقل والمنطق »(١) ، بل نظاماً يدعو إلى نبذ الحياة وكنى ، « لتحرير الضمائر ، من ربقة الحروف والنصوص »(٢) .

ومن ثم لم يكن غريباً أن نرى السيد المسيح يقولها صراحة :

— « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها »(٣) .

ولم يكن غريباً كذلك ، أن يعتبر بولس الرسول حياة الجسد ، مضادة لحياة الروح :

— « اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد ، لأن الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد »(٤) .

وأن يعتبر يعقوب محبة الدنيا زنا ، والبكاء والنوح مطلبا من مطالب الإيمان:

— « أيها الزناة والزوانى . أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله ؟ فمن أراد أن يكون محبا للعالم ، فقد صار عدواً لله ». « اكتئبوا ونوحوا وابكوا. ليتحول ضحككم إلى نوح ، وفرحكم إلى غم »(٥) .

وكانت المسيحية منطقية مع نفسها ، عندما أعلنت الحرب على الجسد ، ومتطلبات هذا الجسد ، وعلى العقل ، وما يقول به هذا العقل ، وذلك لأنها نظرت « إلى العلوم المدنية (وهى ما يتمخض عنه العقل) ، على أنها تعلى العقل

---

(١) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ ، ص ١٨٦ .
(٢) عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٢١ .
(٣) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح السادس عشر : ٢٥.
(٤) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية — ٩: الإصحاح الخامس : ١٦ ، ١٧ .
(٥) العهد الجديد : رسالة يعقوب — ٢٠ : الإصحاح الرابع: ٤ ، ٩ ، ١٠ .

الإنسانى ، بطريقة غير صحيحة ، على الإيمان المسيحى »[١] .

كانت المسيحية فى ذلك منطقية مع زمانها (الدولة الرومانية ، والحضارة اليونانية الرومانية) ومكانها (إسرائيل ، وما سيطر على اليهودية فيها من مادية قاتلة) — ولكن الشىء غير المنطقى ، هو تحولها من ديانة محدودة الزمان والمكان ، إلى ديانة لكل زمان ومكان .

ذلك أنها كانت تستطيع أن تعلن الحرب على العقل الإنسانى فترة — حتى يأتى الإسلام ، فيرد إلى هذا العقل ، ما رده إليه من اعتبار ، ومن تقديس وإكبار ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تعلن الحرب على هذا العقل إلى الأبد ، وإلا لكانت فى ذلك تحارب نفسها ، قبل أن تحارب العقل .

وهذا ما حدث لها بالفعل ، بعد الثورة الصناعية فى الغرب ، فقد صارت — بعد هذه الثورة ، وبعد أن خفت قبضتها على المجتمعات الأوربية — فى موقف لا تحسد عليه ، فى داخل المجتمعات الأوربية ، حامية المسيحية ، ذاتها .

ولنا عود إلى هذه النقطة مرة ثانية فيما بعد ، عند حديثنا عن القضايا المختلفة ، فى الفصول التالية .

المجتمع الانسانى :

ولم يكن الإنسان بقادر — وحده — رغم جسده وعقله — على أن يقتحم مجاهل الحياة ، فهو يحس — رغم العقل وإمكانيات الجسد — بأنه عاجز مشلول ، إذا هو سار فى هذه الحياة ... وحيداً .

وأكثر من ذلك ، أن علماء الاجتماع ، يعتبرون (الكيان الإنسانى)

---

(١) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ ، ص ٣٥١

كله ، مجرد (مادة أولية) ، أو (مادة خام) ، وأن هذا (الكيان الإنسانى)، يأخذ شكله النهائى ، بفعل مجتمعه ، الذى يعيش فيه .

(فالبصمة) الاجتماعية على هذا (الكيان) الإنسانى . . هى أوضح البصمات .

ومن حق علماء الاجتماع ، أن يتعصبوا لتأثير المجتمع كما يشاءون ، وأن يبالغوا فى تقدير الدور ، الذى يقوم به ، فى (تشكيل) شخصيات أبنائه .

ولكن من حقنا أيضاً ، أن نرد بما نراه ، وأن نقبل من كلامهم ما يمكن قبوله ، وأن نرفض من هذا الكلام ، مالا يمكن قبوله .

ونحن لا يمكن أن ننكر التأثير الاجتماعى فى حياة الأفراد ، فالبصمة الاجتماعية فى حياة الأفراد ، يمكن أن نراها بوضوح ، فى « أسلوب تناول الطعام ، أو ارتداء الملابس ، أو استخدام اللغة ، أو تبادل الحب ، أو الزواج ، أو دفن الموتى ، أو لعب كرة القدم . وقد تشمل أيضاً قراءة الأدب ، أو سماع الموسيقى ، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين ، أو الأنواع الأخرى من النشاط »(١) .

وهذا التأثير الاجتماعى ، فى حياة الإنسان ، نجد التكوين البيولوجى للإنسان ذاته ، مستعداً له ، فالإنسان يتعامل مع العالم الخارجى ، من خلال جهازه العصبى وحواسه ، « فمن خلال الحواس ، يعرف الفرد بناء العالم المحيط به ، الذى يجب أن يعيش فيه ، والذى يجب أن يتكيف معه ، إلى حد ما »(٢) .

---

(١) ا . ك . أوتاواى : التربية والمجتمع — ترجمة دكتور وهيب ابرهيم سمعان وآخرين — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) فيليب هـ . فينكس : فلسفة التربية — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — دار النهضة العربية — ١٩٦٥ ، ص ٤٧٨ .

ومن خلال هـذا الجهاز العصبى ، يستطيع الإنسان التكيف مع العالم الخارجى ، المحيط به .

ولذلك ، يرى دانيل كاتز ، أنه بينما « نريد بوجه عام ، أن يعترف بنا المجتمع ، ويكافئنا ، فإننا نتأثر بقوة ، بالناس الذين يحيطون بنا مباشرة ، وبالجماعات المتجابهة ، والتى نشترك فى عضويتها ، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية » ، وأنه « كثيراً ما تقمع أنانية الفرد ، فى سبيل التطابق مع معايير الجماعة » ، وأن « قدرا كبيراً من المعايير الاجتماعية لثقافتنا ، اكتسبناها عن طريق العضوية ، رسمية كانت أو غير رسمية ، فى جماعات كثيرة من مجتمعنا »[١] .

وإذا كنا نسلم بتأثير المجتمع فى حياة أفراده ، فإننا لا يمكن أن نسلم ، بأن هذا التأثير مطلق ، إلى هذا الحد ، الذى يكون فيه الإنسان الفرد ، مجرد (متلق) للتأثيرات . أو يكون فيه مجرد « حيوان ، أو كيان Organism ، رغم أنه — أيضاً — مخلوق متحضر ، له تاريخ ، وقيم اجتماعية »[٢] ، حيث « يولد الطفل دون شخصية ، وفى مراحل نموه ، تتكون فيه الشخصية ، بسبب تفاعل إمكاناته الفطرية ، مع محيطه الخارجى »[٣] .

ونحن لا نستطيع أن نسلم بأن تأثير المجتمع ، فى شخصيات أفراده ،

---

(١) دانيل كاتز : « أثر الجماعة فى الاتجاهات والسلوك الاجتماعى » — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الثامن من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — بإشراف ج . ب . جيلفورد — والترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ ، ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(2) **KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948, p. 1.**

(٣) رالف لنتون : دراسة الإنسان — ترجمة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٠ ، ص ٣٨٥ .

مطلق على هذا النحو ، لأن الواقع الماثل أمامنا ، يشهد بأن هناك كثيرين من أبناء المجتمع ، يعدون (خارجين على القانون) ، أو متمردين ، أو ثواراً ، يتسمون بعدم الرضا عن المجتمع بوجه عام ، ويترجمون عدم الرضا هذا ، إلى سلوك مضاد للمجتمع.

كما يشهد هذا الواقع الماثل المعاصر ، بأن هؤلاء المتمردين ، موجودون فى كل مجتمع معاصر ، وأن عددهم يزيد فى البلاد المتقدمة ، عنه فى البلاد الأقل تقدماً ، والمتخلفة.

كما يشهد — كذلك — بأن تمرد هؤلاء المتمردين ، وخروجهم على القانون ، قد يكون بسبب الرغبة فى الغنى السريع ، وقد يكون لونا من ألوان (استعراض العضلات) ، الذى يظهر به الإنسان أمام نفسه وأمام الآخرين ، إنسانا قادراً .. لا عاجزاً ، وقد يكون — كذلك — لونا من ألوان الرغبة فى إيذاء المجتمع ، إيذاء لمجرد الإيذاء ، بسبب مالقيه الإنسان المتمرد ، من مصاعب فى حياته ، على يد فرد — أو أفراد — من هذا المجتمع.

ولكن الواقع الماثل المعاصر ، يشهد أيضاً ، بأن كثيراً من هؤلاء المتمردين ، ليسوا (مرضى) على هذا النحو ، بل على العكس ، قد يكونون (عباقرة) ، رأوا فساد المسار الاجتماعى ، وهو مالم يره غيرهم ، فأعلنوا عن هذا الفساد ، ولم يكتفوا بمجرد الإعلان عنه ، بل اتخذوا خطوات إيجابية نحو تغيير هذا المسار الاجتماعى الفاسد.

ويتعرض هؤلاء العباقرة — بطبيعة الحال — للمطاردة والاضطهاد ، وللتشريد والتعذيب ، ولمصادرة الأموال والأرواح ... ولكن الواقع يشهد أيضاً ، بأن التاريخ يكتب ما يرونه ، لا ما يراه القطيع الضخم - أبناء المجتمع - الذين يطاردونهم ويضطهدونهم ويعذبونهم .

ولم يكن غريبا ، أن يحرم القانون الدولى المعاصر ، إعدام المخالفين السياسيين ، أو الإعدام (لجرائم)سياسية ،على أساس أن (المجرم السياسى) اليوم ، هو (حاكم) الغد .

ومعظم من يتولون الحكم اليوم فى العالم ، ذاقوا النفى والسجن والتشريد .. قبل أن يتربعوا على كراسى الحكم .

وعلى ذلك ، فالإنسان ليس (قابلا) للثقافة على طول الخط ، كما يقول بذلك علماء الاجتماع ، وإنما هو (فاعل) لها أيضاً ، كما يقول بذلك الواقع الماثل أمامنا ويشهد .

ذلك أن هؤلاء (المتمردين) السياسيين ، ما أن يصلوا إلى السلطة ، حتى يبدءوا فى تغيير المجتمع كله . . . تغييرا جذريا ، يتفق والآراء المضادة للمجتمع ، ولمساره ، والتى من أجلها حوربوا من قبل .

وليس الأنبياء عليهم السلام ، كما رأينا فى كتابنا السابق من كتب السلسلة ، إلا من هؤلاء (المتمردين) ، إلا أن المسار الجديد للمجتمع ، لم تحدده عبقرية هؤلاء (الثوار) أو (المتمردين) ، وإنما حدده الله سبحانه ، الذى أرسل كل رسول من هؤلاء الرسل(١) .

الروح الانسانى :

وهو ميدان جديد ، من ميادين دراسة الإنسان ، ظل العلم الحديث يتغافله ويتنكر له . . حتى منتصف هـــذا القرن ، حيث بدأ (علم النفس الروحى) Para - psychology ، يفرض نفسه على جملة الدراسات النفسية ، ويوجه طعناته القاتلة ، إلى علم النفس التقليدى .. المادى ، الذى لا يرى الإنسان إلا حيوانا .. وكفى .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : أنبياء الله والحياة المعاصرة — الكتاب السادس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — سبتمبر ١٩٧٨ ، ص ٧١ ، ٧٢ .

غير أن علماء علم النفس الروحى ، وقعوا فى نفس الخطأ،الذى وقع فيه علماء علم النفس التقليدى ، حيث رأوا الدين ، مجرد (غريزة) ، « شأن غريزة البحث عن الطعام ، أو الدفاع عن النفس ، أو أية غريزة أخرى»(١)، وأن هـذه « الغريزة الدينية ، أودعتها فى النفوس ، طبيعة حانية ، لخدمة تطور الذات ، وارتقائها ، عن طريق إحساسها الدفين بالقوة الخالقة ، وبالخلود ، وبالثواب والعقاب »(٢) .

(فالهبوط) بالدين ، إلى مستوى (الغريزة) ، يدل على المنظور المادى ، الذى ينظرون به إلى الروح ، ومن ثم يدل على الخطأ الذى يمكن أن يتعرضوا له ، فى علاج مسائل الروح .

ودليل هذا الخطأ ، أنهم يعتبرون الإنسان روحاً ... لا جسداً(٣) ، على أساس أن شخصية الإنسان تبقى كما هى ، لا تتأثر بتحلل الجسد ، حيث «تبقى الشخصية ، وهى بمعزل عن المادة الفيزيقية » (٤) .

ولقد وقع علماء علم النفس الروحى ، فى هـــذا الخطأ ، لأنهم رأوا تعصب علماء علم النفس التقليدى ، للجسد ، وما يتبعه من أدوات وأجهزة ومعدات ، فاستدرجوا — من حيث لا يعلمون — إلى أن يكون علمهم ، رد فعل — مجرد رد فعل — لعلم النفس التقليدى .

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الثانى — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٨١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠٧ .

(٣) الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ١٠١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤ — نقلا عن : على حافة العالم الأثيرى — ترجمة المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير — ط ٣ ، ص ٤٤ .

ورد الفعل دوما عنيف ، بحكمه القانون الطبيعى ، الذى يرى ، أنه (لكل فعل ، رد فعل ، مساو له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه) .

ومن ثم يكون (عنف) رد الفعل ، متوقفا على (عنف) الفعل ذاته .

وقد كان الفعل عنيفا ، لأنه كان يرى الإنسان (جسدا ، لا روحا) ، فجاء رد الفعل بنفس العنف ، ليرى أن الإنسان (روح ، لا جسد) .

ولا نستطيع أن نلغى الروح ، ودورها فى حياة الإنسان ، كما فعلت معظم مدارس علم النفس التقليدى ، كما لا نستطيع أن نلغى الجسد ، ودوره فى حياة الإنسان ، كما فعلت مدرسة علم النفس الروحى ، وإنما نرى ضرورة (الجمع) بين وجهتى النظر المتناقضتين ، على نحو يحقق اقتدار الإنسان بالفعل ، كما نرى من خلال حضارته الحديثة ، وإنجازاته العلمية والتكنولوجية المعاصرة ، وكما نرى من خلال نظرة الإسلام إليه ، باعتباره (خليفة) لله فى الأرض .

فالجسد حقيقة واقعة ، لا يمكن أن نتجاهلها عند دراسة الإنسان ، وإلا كان تجاهلنا له ، تجاهلا للحقيقة ذاتها .

والعقل حقيقة واقعة ، لا يمكن أن نتجاهلها .

وتأثيرات المجتمع فى حياة الإنسان ، لا يمكن أن نتجاهلها .

والروح حقيقة واقعة فى حياة الإنسان ، لا تقل تأثيرا فى تلك الحياة ، عن الجسد وملحقاته .

والشخصية الإنسانية ، ليست إلا محصلة لهذه القوى والملكات ، التى تبدو متنافرة ، ولكنها — فى حقيقة أمرها — متكاملة غاية التكامل ، على نحو من الأنحاء .

فالإنسان الحر المقتدر ، بجسده وعقله ، إنسان (محكوم) بإرادة إلهية عليا ، تسيره ، كما تسير غيره من خلق الله الكثير .

الفصل الثانى

قضية الحرية

تقـــديم :

تعتبر قضية (الحرية) ، من أكثر القضايا ترددآ فى عالمنـا المعاصر ، وتعتبر — فى الوقت ذاته — من أكثر القضايا إلحاحا . فهى تسيل لعاب الإنسان الحديث ، بشكل لم يـكن له من قبل مثيل .

ومن أجل ذلك، صارت (الحرية)، هى الموضوع الأساسى، للمزايدة بين المزايدين ، سواء على مستوى العالم ، بين المعسكرين الـكبيرين اللذين يتنازعانه، وسواء على المستوى المحلى فى كل بلد ، بين مختلف الأحزاب والهيئات والمنظمات والجماعات.. التى تجرى وراء السلطة ، ومن أجلها ترفع الشعارات، فيكون (للحرية) بين هذه الشعارات ، نصيب الأسد .

وما أجمل الحرية ، كشعار يرفع .

إذ : من منا يكرهها ، ويتمنى نقيضها ؟

ولـكن الأمانى شىء ، والواقع فعلا شىء آخر .

فلا إنسان حر على الإطلاق ، وأولئك الذين يدعون أنهم أحرار ، هم أكثر الناس إحساسا — فى أعماقهم — بالعبودية ، وبثقل وطأتها على نفوسهم ، على نحو ما سنرى .

ولندخل إلى هذه القضية — قضية الحرية — من بابها ، لنسبر غورها ، ثم نصل — أخيراً — إلى منتهاها ، لنرى مدى الزيف ، الذى يمارسه من

يرفعونها — كشعار — عن قصد ، لمصادرة حريات الآخرين ، ولتكون الحرية — فى النهاية — حريتهم — وحدهم — فى الواقع ، ليسلبوا الآخرين — بعد ذلك — أية حرية .

هل الانسان حر ؟ :

ولو وجهنا هذا السؤال لإنسان معاصر ، لكانت الإجابة الفورية عليه بالإيجاب ، خاصة إذا كان يعيش فى بلد غربى .

ولكن الإنسان المعاصر ، لو فكر لحظة فى السؤال ، لوجد أن حريته — منذ البداية — مصادرة ، أو محدودة محدودة ، وأنها ليست — كما يدعى — مطلقة .

فالإنسان يولد رغم أنفه ، ويموت رغم أنفه .

وبين البداية والنهاية .. يسير رغم أنفه أيضاً ، رغم أنه يبدو — فى حياته — أنه يختار خط سيره ، ويسير فيه ، بإرادته الحرة .

ذلك أنه يولد (مقيداً) بكثير من العوامل الوراثية ، التى تحدد طوله أو قصره ، ونحافته أو بدانته ، كما تحدد لون عينيه وشعره وبشرته . . بل وتحدد أحيانا وقوعه تحت سيطرة مرض وراثى ، لا دخل له فيه .

ويذكرنا ذلك ببيت الشعر ، الذى أوصى أبو العلاء المعرى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى على ، وما جنيت على أحد

ذلك أن حياة الإنسان ، كما رأينا فى كتابنا الرابع من السلسلة ، عن (الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر) ، وكما يقول بذلك العلم الحديث ، تبدأ « بخلية واحدة ، تنشأ من اتحاد حيوان منوى من الأب ، ببويضة من الأم ، وهذه الخلية تنقسم ، وتواصل الانقسام ، حتى يكون الجسم

البشرى »[١] ، وأن كلا من الحيوان المنوى والبويضة ، يحمل ٢٤ من الصبغيات، أو الكروموزومات Chromosomes ،أى أن البويضة المخصبة، تحتوى « على ٤٨ صبغيا ، أو ٢٤ زوجا من الصبغيات ، نصفها من الأب ، والنصف الآخر من الأم »[٢] .

وإذا كان الرجل يفرز فى القذفة الواحدة ، من « ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ حيوان منوى »[٣] ، وإذا كانت هذه الحيوانات المنوية، التى يصل عددها إلى مائتى مليون حيوان ، على أقل تقدير ، تتسابق إلى البويضة ، ليلتصق واحد منها بها ، ولتتحدد على أساسه ، كثير من الصفات التكوينية والخلقية للجنين .. فإن مسألة حرية الإنسان هنا . . تغدو مقيدة قيداً واضحاً .. بهذا الحيوان المنوى الفائز فى السباق،وما يحمله من صبغيات، لا بقدرات الإنسان ذاته ، الذى هو ثمرة من ثمرات هذا السباق الرهيب .

ويشب الإنسان وينمو ، مقيداً بهذه العوامل الخلقية أو التكوينية ، التى ورثها . . ليجد نفسه ـ بعد قيد الصبغيات ـ موضوعا فى قيد جديد ، هو (قيد) المجتمع ، الذى ينشأ فيه ، كما رأينا فى الفصل السابق ، عند حديثنا عن المجتمع الإنسانى[٤] .

وأولئك الذين يسمون أنفسهم (بالثوريين) ، يجدون أنفسهم فى النهاية يصلحون ، فى إطار (واقع) اجتماعى قائم ، أو يتصرفون فى حدود هذا

---

(١) ويلارد أولسون : تطور نمو الأطفال — ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ وآخرين — مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى — عالم الكتب — ١٩٦٢ ، ص ٧٧ .

(٢) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة إلى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ ، ص ٣٧ .

(٣) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) — الطبعة الثانية — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٧٦ — من الهامش رقم (١) .

(٤) راجع إلى ٣٦ ، ٣٧ من الكتاب .

الواقع ، « بل إن أشد الحركات الثورية عنفا ، كان عليها أن تكيف مبادئها وأفكارها الجديدة ، للظروف التاريخية والحضارية القائمة »(١) .

ذلك أن الإنسان ، أراد أم لم يرد، يتشكل اجتماعيا ، بطريقة لاشعورية ، فيشب (اجتماعيا) ، مقبولا من مجتمعه ، ثم مدافعا عن هذا المجتمع ، بقيمه ومثالياته وأخلاقياته .

فما يجب وما لا يجب ، والحلال والحرام . . والعيب ، كلها معايير ، يضعها المجتمع ، قبل أن يضعها عقل الإنسان أو ضميره .

بل إن (ضمير) الإنسان ذاته ، يشكله المجتمع ، أكثر مما يساهم هذا الضمير فى (تشكيل)القيم الاجتماعية .

فالضمير الإنسانى الشرقى ، الذى يرى العيب كل العيب ، فى أن ينظر رجل أجنبى - مجرد نظر - إلى زوجته أو أمه أو بنته ، أو إحدى (محارمه) ... مناقض تماما للضمير الإنسانى الغربى ، الذى يرى فى ذلك فخراً له — أى فخر - مع أن هذا ضمير إنسانى ، وذاك ضمير إنسانى .

إلا أن تشكل هذا الضمير فى إطار غربى ، جعله مختلفا عن ضمير آخر ، تشكل فى إطار شرقى .

وأولئك الذين (يثورون) على المجتمع . . وعلى قيمه ومعتقداته وعاداته وتقاليده . . إنما يثورون لأسباب مختلفة . . فقد يثورون لانحراف هذا الخط الاجتماعى السائد، عن المثل العليا والفضيلة . . كما عرفوها من خلال قراءاتهم ، أو احتكاكاتهم بغيرهم . . أو إيمانهم بقيم دينية معينة . . وقد يثورون لأن مصالحهم

---

(١) الدكتور محمد منير مرسى : الاتجاهات المعاصرة ، فى التربية المقارنة — عالم الكتب — ١٩٧٤ ، ص ٤٧ .

مهددة . . أو لحقد وكراهية ودموية، تشربوها من خلال تنشئتهم الاجتماعية . . وما وقع عليهم - فى هذه التنشئة - من ظلم وكبت وحرمان.

وهم عندما يثورون على المجتمع . . لا يثورون عليه ثورة هوجاء . . وإنما ثورة مخططة منظمة ، تعكس السبب الذى من أجله ثاروا . . كما تعمل ألف حساب - فى الوقت ذاته - لهذا المجتمع الذى ثاروا عليه .

أو على حد تعبير الدكتور محمد عزيز الحبابى ، « يكون الثورى محافظا و (اتباعيا) فى البداية ، فمجددا بعد ذلك . إن الأصالة لا تكون ، أبدا ، فى الأول ، فالمصلح أو المجدد ، بل حتى العبقرى ، يبدأ بأن يخضع لآراء عصره ، وأن يتأثر بطابع محيطه . إنه يهضم ويستسيغ ... قبل أن يعدل »(١) .

فالإنسان ليس حرا .. لا بطبيعته ، ولا بحكم تنشئته .. وأكثر الناس ادعاء للحرية ... هم أكثر الناس إحساسا بفقد هذه الحرية . وهم حين يدعون الحرية على هذا النحو ، إنما يدعونها ، لعميق إحساسهم بهذه (العبودية)، التى يرسفون فى أغلالها ، وتلك الحرية التى يفتقدونها ، وهم يفعلون ذلك ، ليعيشوا — بخيالهم — حياة يحسون فى أعماقهم ، بأنهم لا يستطيعون أن يعيشوها واقعا .

وأكثر الناس ادعاء للبطولة ، هم أكثر الناس إحساسا بالجبن ، وبالهوان على أنفسهم وعلى غيرهم . . أما الأبطال الحقيقيون ، فهم قلما يتكلمون عن البطولات .

وأكثر الناس ادعاء للتدين ، هم أكثر الناس بعدا عن التدين .. أما المتدينون الحقيقيون ، فهم أكثر الناس خوفا من الله ، وإحساسا بالتقصير فى حقه ، وتواضعا وخشية .. إذا وصفهم غيرهم بالتدين ، أو بالصلاح .

---

١ الدو ر محمد عزيز الحبابى : من لحريات لمى التحرر — من مكتبة الدراسات الفلسفية) — دار المعارف بمصر — ١٩٧٢ ، ص ٢٠٤ .

فهى خرافة ، يوهم بها الإنسان نفسه .. أن يدعى أنه حر .

ذلك أن الإنسان لو كان حرا حقيقة ، لأحس بمدى القيود التى تثقله ، ولعمل — فى إطار هذه القيود — على أن (ينتزع) لنفسه ، أكبر قدر من الحرية يقدر عليه ، ويمارس — من خلاله — ما (يليق) به من أعمال ، لا ما (يحب) أن يقوم به من أعمال ، لأن مثل هذا التصرف ، يدل على قدرة الإنسان ، على أن (يرتقى) إلى درجة الإنسان ، لا على عجزه عن أن يتصرف ، إلا كما يتصرف الحيوان .. غير المسئول .

ولو أنك أطلقت العنان لكلب مسعور ، لمارس العض ، حيثما قادته قدماه .

ولو أنك أطلقته لإنسان غير مسئول ، ووضعت فى يده مسدسا ، لراح — من خلاله — يقتل كل من يصادفه .

فهل نسمى مثل هذا الإنسان ، أو مثل ذلك الكلب .. حرا ؟

إن الحرية ليست هى القدرة على (الفعل) دوما ، وإنما قد تكون الحرية قدرة على (عدم الفعل) .

فكل إنسان قادر على أن يحضر عود ثقاب ، وعددا من الأوراق ، ويشعل حريقاً هائلا ، يحرق ويدمر .. ولا نسمى من يفعل ذلك حراً .. وإنما نسميه مجنوناً ، أو معتوها .. أو غير مسئول ، وعلى العكس ، نسمى من (يكظم غيظه) .. حرا .. وإنسانا نبيلا .. لا لأنه خاف .. ولكن لأنه (رفع نفسه) إلى مستوى كريم ، و (منع نفسه) من الهبوط إلى درجة الانتقام ، أو مقابلة الإساءة .. إلا بالإحسان ، مع قدرة — بطبيعة الحال — على أن يقابل الإساءة بإساءة .

إن أكثر الناس إحساسا بالحرية حقيقة ، هم أكثر الناس معرفة بالقيود التى تكبلهم ، وليسواهم المتغافلين لهذه القيود ..

وفى مقدمة هذا القيود ، التى يحس هؤلاء الناس بها .. القيود الكونية .. والبيولوجية .. والطبيعية .. والاجتماعية .

ذلك أن التعرف على هـــذه القيود فى حد ذاته ، يعنى إمكانية دراسة الأوضاع المحيطة بالإنسان ، ليستفيد — من خلالها — بأكبر قدر يمكن أن تتيحه هذه القيود للإنسان .. من حرية .

الحرية فى الغرب الراسمالى :

يسمى العالم الغربى — الرأسمالى — نفسه بالعالم الحر . ويقاتل هـذا العالم الغربى باسم الحرية فى كل مكان . وفى الولايات المتحدة ، زعيمة العالم الغربى — الرأسمالى — تمثال للحرية ، يحج الأمريكيون إلى عاصمتهم واشنطون ، من أجله ، تماما كما يحج أبناء الاتحادالسوفيتى — الشيوعيون — إلى عاصمتهم موسكو ، من أجل مقبرة لينين .

ولا ندرى على وجه التحديد ، ما إذا كان اسم (العالم الحر) ، فى غرب أوربا وأمريكا ، يسمى بهـذا الاسم ، بمعنى أنه (العالم المسيحى) ، أو يسمى به ، لأنه يؤمن — منذ ثورة الإصلاح الدينى فى مطلع القرن السادس عشر — بالحرية الفردية ، خاصة بعـد أن بلورت الفلسفة الليبرالية ، على يد المفكرين البروتستانت ، من أمثال جون لوك ، ومونتسيكيو ، وفولتير ، وجان جاك روسو ، وغيرهم .

وأغلب الظن ، أن العالم الغربى — الرأسمالى — يسمى نفسه بهـذا الاسم ، ويحب أن يسميه الآخرون به ، للسببين معاً ، على نحو ما سنرى .

وعلى ذلك ، فالحرية فى الغرب الرأسمالى خرافة كبرى ، لا واقع تقوم

عليه ، رغم أن من يعيشون فى خارج العالم الغربى ، يحسدون أبناءه على ما ينعمون به من حرية .

والحرية فى العالم الغربى خرافة ، إذا هى قامت على أساس أن العالم الغربى عالم مسيحى .. لأسباب ، منها أن المسيحية فى العالم الغربى ماض وليست حاضرا ، وأن الغربيين لم يقتحموا آفاق التقدم فى ظل المسيحية ، وباسمها ، وإنما اقتحموها ، على حساب المسيحية ذاتها ، التى «تعلن الحرب على كل مظهر دنيوى ، وكل حاجة من حاجات الجسد » ، والتى « تعلن الحرب على العقل ، لأنه عدو الروح اللدود ، فالعقل بطبيعته يتعلق بحاجات الجسم ، ويهتم بها ، كما يتعلق بالدنيا ، التى يجب أن يلفظها الإنسان من حياته تماما ، ويعيش فقيرا »(١) .

ومن ثم صارت المسيحية — والمسيح — موضع سخرية شديدة فى العالم الغربى ، الذى يدعى أنه مسيحى ، فى الوقت الذى يكرمان فيه فى ظل الإسلام — أيما تكريم ، فإن « نبى الإسلام قد حفظ للديانة المسيحية مركزها ، وأيد جلالها ، وأثبت صحة الكثير من تعاليمها ، ونادى بوجوب تقديس أوامرها ، والعمل بها ، واحترام كتبها المنزلة »(٢) .

لقد صار العلماء الغربيون — المسيحيون — منذ داروين — «يجهرون بالعداوة السافرة ، ويتعمدون البعد عن الدين والعقيدة ، وينشرون هذه الآراء الكافرة ، التى تقول إن الإنسان هو الذى خلق الله ، وليس الله هو الذى خلق الإنسان »(٣) ، و « ينكر بعض مؤرخى الأديان (منهم) ، مجرد وجود المسيح عليه السلام ، إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ،

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الإسلام والكون (مرجع سابق) ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الإيغومانس ابراهيم لوقا : المسيحية فى الإسلام — الطبعة الأولى — مطبعة النيل المسيحية — يوليو ١٩٣٨ ، ص ١ — من التمهيد .

(٣) محمد قطب : قبسات من الرسول — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ٤٨ .

وعللوا المسيح والمسيحية ، بأنهما من اختراع القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة ، لم يقع لها وجود ، إلا فى خيال القديس بولس »(١)، وأن « أخبار المسيح ، بقية من بقايا الديانات الشمسية» ، «فى ديانات الأقدمين ، من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين»(٢) .

ومن هذه الأسباب أيضا ، أنه حتى لو كان العالم الغربى مسيحيا حقا ، فإن مسيحيته لا يمكن أن تعطيه امتيازا ، يسلب غير المسيحيين أى حق من حقوق بشريتهم :

— « أيها الإخوة ، لسنا أولاد جارية ، بل أولاد الحرة»(٣).

فليست (الحرية) ميراثا يورث ، وليست (العبودية) ميراثا يورث أيضا ، وإنما الحرية والعبودية على السواء ، أمران نسبيان ، إذ ليس هناك إنسان حر ، كما سبق فى مطلع هذا الفصل ، وإنما كل إنسان مقيد .. أو عبد ، والناس فيما بينهم ، يتفاوتون فى هذه العبودية .

ثم إن الحرية والعبودية صفتان نفسيتان ، لا يمكن أن تورثا ، كما يورث التراث .. المادى .

وأى دين ذلك الذى يعطى أتباعه حقوقا مطلقة ، ويحرم غير متبعيه من كل الحقوق .. إلا أن يكون هذا الدين من نسج خيال مريض .

وباسم المسيحية — نتيجة لذلك — ارتكبت أحط الجرائم البشرية ، فى داخل العالم المسيحى الغربى ذاته ، فى العصور الوسطى .. شنها المؤمنون بها ، على من اتهموا بالكفر والهرطقة .

---

(١) الإمام الأكبر ، دكتور عبد الحليم محمود : فى رحاب الكون ، مع الأنبياء والرسل — العدد (١٢٨) من (كتاب اليوم) — رمضان ١٣٩٧ — ١٥ أغسطس ١٩٧٧ ، ص ٢٠٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ وكشوف العصر الحديث (مرجع سابق) ، ص ١٠٣ .

(٣) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية — ٩ : الإصحاح الرابع : ٣١ .

وليست قصة (محاكم التفتيش) بالسر ، فقد أنشئت لتعاقب « - كما يقول البابا - أولئك الملحدين والزنادقة ، الذين هم منتشرون فى المدن وفى البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول » . « ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم ، يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء ، كان منهم العالم الطبيعى المعروف برونو » ، « وهكذا عوقب العالم الطبيعى الشهير غليليو (Galilio) بالقتل »(١) .

ولم يعط هؤلاء المسيحيون — أبناء الحرة — أنفسهم حق إبادة من لا يرضون عنهم ، من مواطنيهم المسيحيين فقط ، وإنما اتسع هذا الحق ، فشمل البشرية كلها .

ومن ثم كانت الحروب الصليبية .. إرضاء لحقد البابا أربان ، كما ظهر فى خطابه الذى ألقاه فى مدينة كليرمون الفرنسية ، فى شتاء سنة ١٠٩٥م ، مفتتحا به الحملات الصليبية على الإسلام .

وفى هذه الحملات الصليبية .. المقدسة ... تمت إبادة المسلمين فى الأندلس ، وتم تحويل مساجدها إلى كنائس ... كما تم — فى بيت المقدس — حيث دعا السيد المسيح إلى أن يحب أتباعه حتى أعداءهم ... قتل « جنود المسيح ، أكثر من سبعين ألفا من المسلمين ، فى ساعات قليلة »(٢) .

ولا زالت الحروب الصليبية مستمرة حتى اليوم .. رغم ما ترفعه - غير صليب المسيح - من شعارات .. لا تعدو أن تكون « نموذجا من تمويه الراية ، فى محاولة الصليبية العالمية اليوم ، أن تخدعنا عن حقيقة المعركة »(٣) .

---

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٩٢ .

(٢) محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) ، إلى أيام (ديان) — مطبعة دار العالم العربى — ١٩٦٨ ، ص ٢٥٣ .

(٣) سيد قطب : معالم فى الطريق — ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م ، ص ١٨٦ .

وقد وضح هذه الروح الصليبية الحاقدة ، هانوتو ، فى سلسلة المقالات » التى نشرها فى صحيفة الأهرام القاهرية ، فى مطلع القرن العشرين ، والتى رد عليه فيها الإمام الشيخ محمد عبده ، فى صحيفة المؤيد — وفى هذه السلسلة ، وصف هانوتو الإسلام « بأنه مرض وشلل وجنون وجذام » ، ووصف المسلمين « بأنهم وحوش ضارية » ، وطالب « بإبادة خمسهم ، والحكم على الأربعة أخماس الباقية بالأشغال الشاقة ، وترميم الكعبة ، ووضع قبر الرسول فى متحف اللوفر »(١) .

ثم صارت هذه الروح الصليبية الحاقدة ، أكثر وضوحا اليوم . . فيما يمارس من سياسات . . . هى فى حقيقة أمرها امتداد للاستعمار القديم ، كانت تهدف وما تزال ... إلى فرض وصاية (أبناء الحرة) ، على غيرهم من بقية أبناء حواء .. ممن يسمونهم (بأبناء الجارية) .

وإذا ما تركنا الساحة الدولية ، حيث نرى فيها الحرية فى الغرب الرأسمالى ، تعنى حرية البعض . .. من (أبناء الحرة) . . ومصادرة أية حرية لغير هؤلاء الأوربيين والأمريكيين البيض . . . إذا ما تركناها لنعود إلى الساحة الأوربية والأمريكية ذاتها . . ما وجدنا لتلك الحرية المزعومة أثراً .

لقد صارت حرية القادرين . . على حساب غير القادرين .

وفى مثل هذه المجتمعات الغربية ، التى تقوم على المنافسة والصراع ، باسم الحرية ، أو تحقيقا لها ، يكون (البقاء للأصلح) ، كما تقول نظرية داروين ، التى كتبت فى البيولوجى ، ولكن أثرها فى مجال المجتمع ، كان أقوى من

---

(١) الأعمال الكاملة ، للامام محمد عبده — جمعها وحققها وقدم لها : محمد عمارة — الجزء الثالث (الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات) — الطبعة الأولى — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ، ص ٢١٨ — من هامش الصفحة .

أثرها فى مجال البيولوجى ، فقد صارت مجرد صفحة مطوية من صفحاته.. لتكون أساساً من أسس علم الاجتماع ، فى العالم الغربى .

ومن ثم صارت الحرية فى هذه المجتمعات الغربية.. الرأسمالية ، حرية القلة ، على حساب شقاء الكثرة - حرية القله القوية ، على حساب الكثرة المنهكة .

ولم يكن غريباً أن تنتشر الجريمة بشكل لافت للنظر ، فى هذا الغرب الرأسمالى ، بحثا عن وسائل القوة تلك.. سواء فى ذلك المال ، والصحف ، والمراكز ، والوظائف.. والعصابات أيضاً.

وتحول الغرب اليوم ، باسم الحرية ، إلى فوضى ، « وعندما تتحول الحرية إلى (غوغائية وفوضى) ، تنتفى الحرية ، بمعناها الحقيقى »[1].

وحتى هذه القلة ، فى العالم الغربى الرأسمالى ، التى نحسدها على ماتتمتع به من حرية... لا تتمتع بهذه الحرية.

ذلك أنها صارت تعيش حياتها قلقة.. خائفة.. مذعورة.. من (ثورة) الطبقات المظلومة.. وميل هذه الطبقات دوما إلى اللجوء إلى العنف.. إما إثباتا لوجودها ، أو انتزاعا لحقها.. أو لفتا لنظر هذه القلة... حتى تعود إلى رشدها.

ومن ثم صارت هذه المجتمعات الغربية اليوم.. مجتمعات عصابات.. منظمة ، تسلب هذه القلة ، التى تملك كل شىء ، فرصة التمتع بما تملك.. وفرصة الاستمتاع بالأمن أيضاً .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ٢٣٤ .

وقد فهمت اليهودية العالمية ذلك ، فصارت (عصابة) دولية ، تمارس دورها الإرهابى المنظم ، بشكل قانونى .. فى الغرب ، ومن خلال هذا الدور ، صارت اليوم تقود الغرب كله .. إلى هاوية ، من خلال توجيه اليهود للحياة فى الغرب ولحضارته ، سواء « فى العلم والفن ، والاكتشاف والاختراع ، وفى السيطرة على هذه الحضارة ، وتملك زمامها ، وتوجيهها فى صالحهم ... » ، « حتى أصبحوا العنصر الفعال الرئيسى ، فى قيادة الحضارة الغربية ، التى ظهرت فى بيئة مسيحية »(١) .

الحرية فى الشرق الشيوعى (٢) :

نحت الحرية فى الشرق الشيوعى منحى آخر ، بعيداً تماما عن المنحى الذى نحته فى الغرب الرأسمالى ، وكانت الحرية فى الغرب الرأسمالى ، وفى الشرق الشيوعى ، رغم ما بينهما من تناقض ، منطقية مع نفسها ، ملائمة لظروف الزمان والمكان التى ظهرت فيها ، ونحت فيها هذا النحو أو ذاك .

لقد ظهرت الرأسمالية ، وتبلورت فكرة (الحرية) فى ظلها ، فى مطلع القرن السادس عشر ، بعد ثورة الإصلاح الدينى فى الغرب ، « كرد فعل للضغط والكبت ، الذى كانت تمارسه كل السلطات الحاكمة ، أو المتحكمة فى المجتمع ، ضد (الفرد) » . « وكرد فعل ، كانت الفلسفات ، التى ظهرت فى الغرب ، بعد ثورة الإصلاح الدينى به ، سنة ١٥١٥ ، كلها تدور حول ذلك (الإنسان الفرد) ، تعمل على توفير الحرية له ، وإطلاق طاقاته المبدعة ،

---

(١) أبو الحسن الندوى : تاملات فى سورة الكهف — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٥ .

(٢) ونحن نستخدم (الشيوعى) و(الشيوعية) هنا على سبيل التجاوز ، إذ أن الشيوعية مجرد فكرة مثالية ، تسعى البلاد الاشتراكية للوصول إليها . فالمجتمعات الشيوعية المعاصرة ، إن هى إلا مجتمعات اشتراكية ، ونحن نستخدم لفظ (الشيوعية) للتعبير عنها ، تمييزاً لها عن تلك (الاشتراكيات) الكثيرة ، التى يفيض بها العالم الثالث ، والتى لاتعنى فيه أكثر من (احتكار الدولة) ، ولا تتعدى ذلك إلى خطة للاصلاح والتقدم ، لاى هدف أو غرض .

التى طالما شلتها القوى التى تحكمت فيه »[١].

وقد أدت هذه الحرية — كما سبق — إلى خلق حالة من الفوضى فى غرب أوربا ، بلغت ذروتها فى منتصف القرن التاسع عشر ، ومن ثم كان لابد من رد فعل .. عنيف ، فكانت الفلسفة الشيوعية[٢].

وكان رد فعل كبت العصور الوسطى ، هو الحرية ، ثم كان رد فعل (تسيب) ما بعد الإصلاح والنهضة والثورة الصناعية .. هو (النظام) — أو القانون »[٣].

وفى ظل (النظام) ، أو (القانون) ، لم تعد مشكلة (الحرية) مما يشغل مفكرى القرن التاسع عشر ، بعد أن تحولت الحرية إلى سراب خادع ، لا يستمتع به إلا القلة ، على حساب الكثرة الكاثرة .. وإنما صار يشغلهم ضمان (لقمة العيش) للجميع ، بعد أن نجحت القلة الرأسمالية ، فى السيطرة عليها ، وصارت قادرة على استغلالها ، لمصادرة الحريات الحقيقية ، لهذه الكثرة .

ومن ثم يرى الدكتور أحمد عروة ، أن الشيوعية ، أو المادية الجدلية ، أو (المادية التاريخية) ، على حد ما يطلق عليها ، قد ظهرت أول ماظهرت ، « ممثلة لرد فعل عنيف ، سياسى وفلسفى ، على حالة اجتماعية قائمة : المجتمع الرأسمالى الأوربى ، فى القرن التاسع عشر .

---

(١) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة (مرجع سابق) ، ص ٢٣٤ .

كانت السمة الغالبة على ذلك المجتمع، وجود طبقتين اجتماعيتين متعاديتين، طبقة بورجوازية رأسمالية، مستحوزة على ركائز الإنتاج والاقتصاد والمال والسياسة، وطبقة كادحة، صناعية أو زراعية أو حرفية، خاضعة لسيطرة الطبقة الأولى»، و«كان الدين، الذى تمثله الكنيسة، على حظ كبير من القوة والتأثير، بل بدا وكأنه حليف للرجعية والسلطة»(١).

كما يرى الدكتور مصطفى محمود، أن هذه النظرية، تعد رجعية متخلفة، فى القرن العشرين، وإن كانت ملائمة لظروف القرن التاسع عشر، «حيث العامل هو عامل يدوى، كادح مطحون، مسحوق، لا يكاد يجد لقمته.. ولم يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين، حيث العامل هو رجل مرفه، يجلس أمام أزرار، وحيث المصانع تدور آليا؛ بعقول إليكترونية، وحيث لا يوجد جيش من العمال المرهقين، وإنما جيش آخر من الموظفين المرفهين، ومن ورائهم نقابات عمالية، وقوانين للتأمين، ضد العجز والشيخوخة والمرض، وفرص للتعليم والعلاج..»(٢).

وكان الخطأ الأساسى، الذى وقعت فيه الماركسية، كما يراه وحيد الدين خان، هو أنها وضعت لقمة العيش، فى منزلة أعلى مما تستحق، فإن «العيش والاقتصاد، حقيقة بسيطة غير معقدة، إلا أنها تتحول فى هيكل الفكر الماركسى، إلى فلسفة متكاملة، فيصبح الاقتصاد تلقائيا، القضية الأساسية للحياة، بدلا من أن يبقى فى مكانته الأصلية، كقضية عادية من قضايا كثيرة، تتعلق بالحياة، وتؤثر فيها»(٣).

---

(١) الدكتور أحمد عروة: الإسلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية: الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) مصطفى محمود: الماركسية والإسلام — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥، ص ١١، ١٢.

(٣) وحيد الدين خان: حكمة الدين، تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته — ترجمة ظفر الإسلام خان — الطبعة الأولى — المختار الإسلامى، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٣، ص ٨.

وزاد من خطأ الماركسية ، انها لم تكتف بوضع (لقمة العيش) فى منزلة عليا ، لا تستحقها ، بل زادت فألغت كل ما دون (لقمة العيش) ،من جوانب الحياة الإنسانية الأخرى ، «فالفكرة الماركسية، تنفى بشدة ، إرادة الإنسان ، وهى تحيل الأحداث ، إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له ، فهو يصاغ فى مجتمعه ، كما يصاغ الصابون فى المصنع ، ولا طريق أمامه كى يشق أفكارا وطرقا جديدة، وإنما هو ينطلق مفكراً ، على النهج الذى سمحت له به حياته الاقتصادية »(١) .

وتحويل الإنسان الى (بطن كبير) — مجرد بطن — على هذا النحو ، أمر لا يتفق مع الطبيعة الإنسانية ، كما رأيناها فى الفصل الأول(٢) .

ثم إن اعتبار الإنسان مجرد (خاضع) لضغوط المجتمع عليه ، بسبب هذا (البطن) ، أمر لا يتفق مع طبيعة الإنسان ، كما رأيناها فى الفصل الأول أيضاً(٣) .

وهو (مسخ) للإنسان ، أكثر خطورة ، وأشد وطأة،من ذلك المسخ، الذى تم له فى ظل الرأسمالية .

وزاد من وطأة هذا المسخ ، إغفال الجانب الروحى ، أو الميتافيزيقى عموما ، فى حياة الإنسان، وهو أمر لا يتفق مع الطبيعة الإنسانية ،كما رأيناها فى الفصل الأول كذلك (٤) .

---

(١) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الايمان — ترجمة ظفر الإسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الإسلامى — ١٩٧٤ ، ص ٣٦ .

(٢) ارجع إلى ص ٣٠ وما بعدها من الكتاب .

(٣) ارجع إلى ص ٣٧ ، ٣٨ وما بعدها من الكتاب .

(٤) ارجع إلى ص ٣٩ ، ٤٠ وما بعدها من الكتاب .

ورغم أن الشيوعيين ، يرون أنه لا حرية فى ظل أى نظام ، غير النظام الاشتراكى ، الذى يضمن (لقمة العيش) لمن يعيشون فى ظله ، فإن الممارسة الواقعية فى الحياة اليومية ، تشير إلى أن الحرية — سواء فى ذلك حرية الإرادة ، وحرية الاختيار — لا وجود لها فى الحياة فى ظل الشيوعية — أو الاشتراكية .

فالدولة — فى نظر هيجل — أستاذ ماركس وانجلز — وأبى الاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية ، المعاصرة — إن هى إلا «إله يمشى فى الأرض»(١)، ومن ثم أعلن لينين — أول توليه السلطة فى الاتحاد السوفيتى — أول مجتمع شيوعى معاصر — « دكتاتورية البروليتاريا » ، « ومن خلالها يحكم العاملون فعلا ، البلاد ، حكما إما مباشرا ، وإما من خلال ممثليهم ، ويديرون اقتصاد البلاد كله ، كما يديرون حياتهم السياسية والثقافية »(٢) .

وهو ادعاء ، نجده واسع الانتشار فى الكتابات الشيوعية ، ولكن الممارسات العملية (لديكتاتورية البروليتاريا) ، أو (ديكتاتورية الطبقة العاملة) ، أثبتت أن البروليتاريا — أو الطبقة العاملة — المقصودة ، ليست هى الطبقة العاملة المعروفة ، من عمال وفلاحين ، وإنما هى تلك الطبقة ، القريبة من السلطة الحاكمة ، والتى تستطيع الدولة — من خلالها — أن تتحكم فى ملايين العمال والفلاحين الكادحين فعلا . وعندما أعلن لينين سنة ١٩١٧ « ديكتاتورية الطبقة العاملة Dictatorship of Proletariat » ، وذكر أن الديكتاتورية معناها (السلطة اللانهائية) ، التى تستند على القوة ، لا على

---

(١) هـ . ا . ل . فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) — تعريب أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع — (جمعية التاريخ الحديث) — دار المعارف بمصر — ١٩٥٨ ، ص ٢٠٣ .

(2) AFANASYEV, A.: Marxist Philosophy, A Popular Outline; Third Edition, Progress Publishers, Moscow, 1968, p. 291.

القانون »(١) — كان يقصد ديكتاتورية البلاشفة ، أو ديكتاتورية « رجال حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى Social Democratic Labour Party الذى تحول سنة ١٩١٨ إلى الحزب الشيوعى Communist Party »(٢) ، والذى ألفه فى المنفى ، فى فترة كفاحه ، ومن خلاله استطاع القفز إلى السلطة ، وتحطيم عرش القيصرية ، فى الاتحاد السوفيتى ، سنة ١٩١٧ — وقد كان رجال هذا الحزب ، لا يمثلون وقت قيام الثورة ، سوى « ما يقل عن ١٠٪ من مجموع السكان »(٣) .

وكانت وجهة نظر لينين فى إعلان هذه الديكتاتورية ، هو إحكام القبضة على السلطة ، فقد كان يرى أنه « إذا كان القيصر ، قد تمكن من حكم روسيا ، بمائة وثلاثين ألفا من أفراد الطبقة الأرستقراطية ، فإن البلاشفة يمكنهم أن يفعلوا ذلك ، بمائتين وأربعين ألفا من البلاشفة »(٤) ، خاصة وأن هؤلاء البلاشفة ، كانوا (مندسين) فى قلب جماهير الشعب الروسى(٥) ، ولم يكونوا معزولين عن هذه الجماهير ، كما كانت الطبقة الأرستقراطية فى عهد القيصر .

وهكذا ، هدمت الشيوعية كل أساس ، قامت عليه الرأسمالية ، فصادرت الحرية السياسية ، وألغت الملكية الفردية ، وحاربت الأديان السماوية ، واعتبرتها من أسباب تخلف الشعوب ، وأنكرت وجود الله ، وجعلت

---

(١) دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة (مرجع سابق) ، ص ٤١٦ .

(٣) دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة (المرجع الأسبق) ، ص ٥٦ .

(4) COUNTS, GOERGE S. : The Challenge of Soviet Education; Mc Graw – Hill Book Company, Inc., New – York, 1957, p. 35,

(5) POSPELOV, P. N. (Edited by) : Vladimir Ilyich Lenin, A Biography; Second Edition, Progress Publishers, Moscow, 1966, p. 331.

للناس إلها جديداً ، هو الدولة ، وعلى رأسها رئيسها ، بطبيعة الحال (١) .

وكانت النتيجة ، أن تحول النظام إلى (عبادة الفرد) الحاكم ، فالحاكم يؤله ، طالما كان على قمة السلطة ، حتى إذا غادر السلطة ، انقلبت عليه السلطة ، وانقلب عليه المجتمع ، ليتجه النظر كله إلى الفرد الحاكم . . . الجديد .

ويرفع الفرد إلى السلطة فيؤله ، ويمجد كل المتصلين به ، ومن يخدمونه ، ويهبط الفرد من السلطة ، فتدوسه الأقدام ، كما تدوس المحيطين به ، والمتصلين به . . وقد يعلقون على المشانق أيضا ، كما رأينا فى أكثر من كتاب ، من كتب السلسلة السابقة (٢) .

وما أظن أن القيادة ذاتها ، تحس بالأمن هنا ، لأن الجو كله جو مؤامرات وغش وخداع ، وابتسامات صفراء خادعة . . ومن ثم يكون (الجو الدموى) ، الذى تعيش فيه مثل هذه النظم ، وتشتهر به ، هو التعبير الحى الوحيد ، عن ظاهرة القلق والاضطراب ، التى تغلى فى نفوس قيادات هذه البلاد .

فالقيادة العادلة الإنسانية وحدها ، هى التى تعرف معنى الحرية ، ومعنى الأمن والطمأنينة . وصدق سفير فارس إلى عمر بن الخطاب ، عندما وجده نائما بلا حراسة فى الشارع ، فقال له قولته المشهورة :

— « حكمت ، فعدلت ، فأمنت ، فنمت ، يا عمر » .

قالها السفير فى تتابع ، يحمل إلى جانب الإيقاع الموسيقى .. الإيقاع

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٠٣ .

(٢) ارجع — على سبيل المثال — لا الحصر — إلى :
— المرجع السابق ، ص ١٠٥ — ١٠٧ .

النفسى ، والإيقاع العقلى ، لتسلسل الأحداث ، كما تدور فى أعماق النفس ، وكما تبدو على سطح الأحداث .

الحرية فى الاسلام :

لم يرد لفظ (الحرية) على الإطلاق فى القرآن الكريم . وإنما ورد لفظ (الحر) مرة واحدة ، فى سورة البقرة ، وهو يرد فى موضعه ، ليدل على (وضع اجتماعى) معين ، لا ليدل على حالة نفسية معينة ، أو على مايدل عليه لفظ (الحر) ، فى حياتنا المعاصرة[١] .

كذلك يرد لفظ (التحرير) ثلاث مرات ، إلا أنه لا يأتى مطلقا ، بل يأتى مرتبطا بالرقبة (تحرير رقبة[٢]) ، بمعنى عتق نفس بشرية ، ثمنا لخطيئة معينة ، ارتكبت .

كذلك يرد اسم المفعول من الفعل (حرر) ، مرة واحدة ، فى قصة مريم ، فى قوله تعالى :

— « إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم »[٣] .

ويترجم عبد الله يوسف على ، لفظ (محررا) ، إلى اللغة الانجليزية ، كما يشرحه فى الوقت ذاته ، على أنه يعنى « خالصا لخدمتك وعبادتك »[٤] .

---

(١) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى .. » (قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٧٨) .

(٢) قرآن كريم : — النساء — ٤ : ٩٢ .
— المائدة — ٥ : ٨٩ .
— المجادلة — ٥٨ : ٣ .

(٣) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ٣٥ .

(4) ALI, ABDULLAH YUSUF; Op. Cit., p. 132.

ويقول الشهيد سيد قطب ، فى تفسيره لفظ (محررا) ، بجعل أم مريم ، «الجنين الذى تحمله فى بطنها ، خالصا لربها ، محررا من كل قيد ، ومن كل شرك ؛ ومن كل حق لأحد ،غير الله سبحانه . والتعبير عن الخلوص المطلق ، بأنه تحرر ، تعبير موح .فما يتحرر حقا ، إلا من يخلص لله كله ، ويفر إلى الله بجملته ، وينجو من العبودية لكل أحد ، ولكل شىء ، ولكل قيمة ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده ... فهذا هو التحرر إذن . وما عداه عبودية ، وإن تراءت فى صورة الحرية.

ومن هنا يبدو التوحيد ، هو الصورة المثلى للتحرر »(١) .

وهكذا تكون (الحرية) ، ويكون (الحر) ، و (التحرير) ، وغيرها ، فى الإسلام ،غيرها تماما فى الحضارة المعاصرة .

إن الحرية فى الحضارة الغربية ، تعنى « أن يكون الإنسان قادرا على فعل ما يريده ، لا مقيدا ، ولا مسجونا ، ولا مقيدا بالقوانين »(٢) ، كما تعنى أن يكون الإنسان « غير مرتبط بأحد ، له حقوقه الشخصية والاجتماعية والسياسية »(٣) .

وقد تتعدى الحرية هذه المعانى المحدودة ، إلى انفلات ، غير محدود ، من أى قيد ، حين يعنى « الحر : الطليق ، المطلق ، الحر الإرادة ، العادل ، المقسط ، المباح ، الاختيارى ، الفسيح ، السلس ، الخليع ، الفاسق ، المفرط ،

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ـ المجلد الأول (الأجزاء ١ ـ ٤) ـ الطبعة الشرعية الرابعة ـ دار الشروق ـ ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ، ص ٣٩٢ .

(2) WEST, MICHAEL and ENDICOTT, JAMES GARETH : The NewMethad English Dictionary;Twenty -Fourth Impression, Longman, 1976, p. 131.

(3) FOWLER, H. W. and FOWLER, F. G. (Edited by) : The Concise Oxford Dictionary, of Current English, based on the Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by : E MCINTOSH, Oxford, at the Clarendon Press, 1951, p. 476.

السخى ، الجواد ، الكريم ، السمح»(١) ، وحين يعنى التحرير ، أن « يطلق — يعتق — يخلص - ينقذ — يبرى (من دين أو التزام) »(٢) .

والحرية فى الفكر الاشتراكى ، لا تبعد عنها كثيرا فى الفكر الرأسمالى ، فالفكر الاشتراكى هو ابن الفكر الرأسمالى ، وإن بدا أحيانا ، رد فعل له .

والفرق بين الحرية هنا والحرية هناك ، فرق فى (موضع) التحرير ، أو الإطلاق .. فهى فى الفكر الرأسمالى ، إطلاق لكل القيود ، أو هكذا تبدو ، وهى فى الفكر الاشتراكى ، إطلاق للقيود التى تعترض سبيل البدن وحده ، أو هكذا تبدو .

أما الحرية فى الإسلام ، فهى عكس هذا وذاك .

إنها إشعاع داخلى ، يملأ جنبات النفس الإنسانية ، بارتباطها بالله ، فيرفعها هذا الارتباط بالله إلى درجة من السمو ، تكون بها أقدر على أن تفعل الخير ، وتقيم العدل ، وتحق الحق .

وقد يكون هذا الإنسان الحر المسلم ، عبداً أمام الناس ، مملوكا لغيره ، ولكنه رغم ذلك حر ، بهذا المعنى الإسلامى ، وقد يكون الإنسان حراً أمام الناس ، بل قد يكون سيدا مطاعا ، ولكنه رغم ذلك عبد — عبد لشهواته وأهوائه ، على الأقل ، ومن ثم فهو قادر على أن يتحرك .. ويدمر ، ولكنه غير قادر على أن يفعل خيرا .

ولذلك لم يكن غريبا ، أن نرى الحرية فى اللغة العربية — لغة القرآن

---

(1) AL – NAHDA DICTIONARY, English – Arabic, by : MOHAMMAD BADRAN and I. ZAKI KHORSHID, Compiled by: ISMAIL MAZHAR; First Edition, The Renaissance Bookshop, Cairo, p. 649.

(2) Ibid., p. 1168.

الكريم ، غير مشتقة من (فك القيد) ، وإنما هى مشتقة من (المعاناة) — فهى مشتقة من الحرارة ، بمعنى السخونة والشدة(١) ، أى بمعنى المعاناة — فالحرية ليست أن تفعل ما تريد ، ولكن أن تختار فتحسن الاختيار ، وقد تختار الفعل ، ولكنك قد تختار الكف عنه .

وقريب من معنى (الحرية) ، معنى (التحرير) : « (تحرير) الكتاب وغيره ، تقويمه ، وتحرير الرقبة عتقها ، وتحرير الولد ، أن تفرده لطاعة الله وخدمة المسجد »(٢) — ومعناه باختصار : تحميل المسئولية ، على نحو من الأنحاء .

ونقيض الحرية — فى اللغة العربية — هو (الرق) و (العبودية) ، والفرق بينهما فرق فى الدرجة وحدها .

فالعبودية لله ، بمعنى « انقاد له ، وخضع وذل »(٣) .

فهو خضوع قلبى تام ، يحرك الجوارح كلها ، فى طريق طاعة الله .

وإذا استخدمت العبودية بالنسبة للإنسان ، فإنها إنما تستخدم على سبيل المجاز وحده — لا على سبيل الحقيقة .

واللفظ الذى يستخدم هنا — بالنسبة للإنسان — هو (الرق) .

ومعنى الرق : تملك إنسان لإنسان آخر ، من الناحية القانونية .

---

(١) المعجم الوسيط — قام بإخراجه ابراهيم مصطفى وآخرون — وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ١٦٥ .

(٢) مختار الصحاح ، للشيخ الإمام ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م ، ص ١٤٦ .

(٣) المعجم الوسيط — قام بإخراجه ابراهيم مصطفى وآخرون — وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الثانى — مجمع اللغة العربية — ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م ص ٥٨٥ .

ومعنى ذلك أن هـذا الإنسان الرقيق ، يغدو ولا حرية له فى التصرف ، إلا بمـا يأمر به مولاه ، ومن ثم ترفع عنه (المعاناة) ، التى تقع على عاتق الأحرار .

وليس ذلك من طبيعة البشر ، ولذلك نجد الرق فى اللغة العربيـة ، مشتقا من الرقة ، يقال : « (رق) رقا ورقة : رق ونحف ولطف » . « (رق) حاله : ساءت ، وقل ماله . و (رق) لان وسهل . يقال : رق جانبه . و (رق) له : رحمه » . « و (رق) الحر : صار رقيقا ، أو دخل فى الرق »(١) .

وهكذا يبدو ما فى اللغة العربية والدين الإسلامى ، من سمو بالإنسان ، إلى درجة لا يصل إليها فى الحضارة المعاصرة ، مهما بذل .

فإذا كانت الحرية فى الفكر الرأسمالى تعنى (الانفلات) — ولو ظاهريا — من كل قيد ، كما تعنى فى الفكر الشيوعى (تأمين) البطن ، ولو تأمينا ظاهريا ، فإن الحرية فى الفكر العربى والإسلامى ، تعنى تحمل المسئولية ، وعلى قدر تحمل المسئولية ، تـكون الحرية .

ولما كانت الحرية لا يمكن أن تـكون مطلقـة ، على النحو الذى نراها عليه فى المفهوم الغربى الرأسمالى ، ولو من الناحية الظاهرية ، فإن الإسلام يقيدها منذ البـداية ، بربطها بالناموس الـكونى — أى بوضع الإنسان على الخريطة الـكونية .

ومن ثم تغـدو حرية الإنسان — فى الفكر الإسلامى — رهنا بإرادة الله ، لا فوق هذه الإرادة ، أو من وراء ظهرها .

ولما كانت الحرية لا يمكن أن تـكون مقيدة ، على النحو الذى نراها

---

(١) المعجم الوسيط — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٣٦٦ .

عليه فى المفهوم الشرقى الشيوعى ، فإن الإسلام لم يقيد الحرية ، وإنما أطلق للإنسان العنان ، يتصرف كيف يشاء .

ولكن الإسلام لم يترك الإنسان يتصرف كيف يشاء ، على نحو يتحول معه إلى حيوان سائب ، بل جعل عليه رقيباً ظاهراً ، إن فشل الرقيب الباطنى عليه فى القيام بوظيفته . وهذا الرقيب الظاهر ، هو الرأى العام المسلم ، والحاكم المسلم .

وإن استطاع الإنسان — فى الإسلام — أن يفلت من هذا الرقيب الظاهر ، وما أسهل الإفلات منه ، فإن هناك يوما للحساب ، لا إفلات منه على الإطلاق .

وهذه هى فلسفة اليوم الآخر ، كما رأيناها فى كتابنا الخامس من السلسلة ، الذى خصصناه له(١) .

وهكذا تكون هناك حرية فى الإسلام ، إلا أنها حرية (مسئولة) ، أعلن عنها عمر بن الخطاب ، فى صرخته الداوية إلى عمرو بن العاص ، عندما سمع عن قصة ابنه (ابن عمرو) المشهورة ، مع ابن النصرانى :

— « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟» — أى قادرين على تحمل المسئولية ، وعلى أن يختاروا بين الخير والشر . . فيكون اختيارهم للخير عن رضا واقتناع ، يدعم هذا الخير ويؤازره . . وإذا اختاروا الشر ، تحملوا تبعاته . . وهنا يقعون تحت طائلة القانون .

حتى ولو كان هؤلاء (الناس) غير مسلمين ، فهم أصحاب حق فى هذه الحرية . . كالمسلمين ، سواء بسواء .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة — الكتاب الخامس من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ويعلق الدكتور يوسف القرضاوى، على هذه القصة، بقوله : « وقد كانت تقع آلاف مثل هذه الحادثة ، وماهو أكبر منها ، فى عهد الرومان وغيرهم ، فلا يحرك بها أحد رأسا، ولكن شعور الفرد بحقه وكرامته ، فى كنف الدولة الإسلامية ، جعل المظلوم يركب المشاق ، ويتجشم وعثاء السفر ، من مصر إلى المدينة المنورة ، واثقا بأن حقه لن يضيع ، وأن شكاته ستجد أذنا صاغية» (١) .

وهى حرية — لذلك — غير قابلة لأن تخرج عن حدودها ، وغير قابلة لأن تصادر ، تحت أى شعار يرفع ، يؤدى إلى هذا الخروج بها عن حدودها ، أو تلك المصادرة لها ، لأنها أصيلة فى الإنسان ، بما وضع عليها من (قيود) كونية ، وبما وفر لها من ضمانات أيضا .

ومن ثم كان (الإكراه) على عمل من الأعمال ، غير مؤد بالإنسان إلى أن يقع عليه وزر هذا العمل :

— « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون » (٢) .

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى : غير المسلمين ، فى المجتمع الإسلامى — الطبعة الأولى — مكتبة وهبة بالقاهرة — رمضان ١٣٩٧ هـ — أغسطس ١٩٧٧م ، ص٢٨.
(٢) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ١٠٦ — ١٠٩ .

الفصل الثالث

قضية المساواة

تقـــديم :

ولا تقل قضية (المساواة) ترددا في عالمنا المعاصر ، عن قضية (الحرية) ، كما لا تقل عنها إلحاحا وأهمية ، لأسباب كثيرة ، تتصل بحياة عالمنا المعاصر هذا ، قبل أن تتصل بشيء آخر .

ذلك أننا نعيش في عصر يقوم على التفاوت بين الناس ، بسبب التقدم العلمي والتكنولوجي ، وما أدى إليه من (تفاوت) في الدخل ، بين الناس ، ومن بروز للملكات والمواهب ... المتخصصة ، في شتى فروع التخصص .. فصار هناك الطبيب والمهندس والمدرس والرسام والمثال وغيرهم . . وكل منهم لا يعرف إلا أقل القليل ، عن التخصصات الأخرى ، بعد أن أدى التقدم العلمي ، إلى مزيد من التخصص ، في كل فرع من فروع العلم والمعرفة .

كان التقدم العلمي ، محدودا ، في القرون السابقة ، ومن ثم كان هناك (تقارب) بين التخصصات ، على نحو ما ، وكان هنـاك (تداخل) على نحو من الأنحاء ، بين شتى فروع العلم والمعرفة ، فلما كان القرن العشرون ، بدأ التخصص في كل فرع من فروع العـلم ، وبدأ هذا التخصص يزداد ويزداد ، حتى قسم كل علم ، إلى عديد من التخصصات ، أخذت هي ذاتها تنقسم وتنقسم . . . وهـكذا .

ولا يعنينا الآن ، ما إذا كان هـذا التخصص الضيق هو الأصوب ، أم أنه ضد طبيعة العلم ، وإنما يعنينا أنه زاد في التفاوت بين الناس ، وقلل من فرص المساواة بينهم .

وما دام (التفاوت) بين الناس يزداد عمقا على هذا النحو ، وعلى أنحاء أخرى كثيرة ، سنراها فيما بعد . . فلا بد أن يرتفع الصياح بالمساواة، التى لن تتحقق بين الناس ، لأنها ضد منطق الأشياء ، وضد طبيعة الناس ، ولكن من يرفعون الصوت بها ، لا يرفعونه خالصا للحق والحقيقة ، بل يرفعونه تحقيقا لأهداف وأغراض ومكاسب .. شخصية ، كما سنرى .

هل الناس متساوون ؟ :

والإجابة على هذا السؤال ، مرت بنا ، على نحو من الأنحاء ، فى كتابينا الرابع والخامس من السلسلة ، عن (الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر) ، و (اليوم الآخر والحياة المعاصرة) ، ورأينا فيهما ، أن الناس لا يمكن أن يكونوا متساوين، لأن (الشخصية الإنسانية) كالبصمة ، تدل على صاحبها ، ولا يمكن أن تدل على غيره .

ذلك أن الشخصية ليست بالشىء البسيط ، وإنما هى أمر بالغ الصعوبة والتعقيد ، كما رأينا فى مطلع الفصل الأول(١) ، فهى محصلة تكوين بيولوجى، وضغوط اجتماعية ، وإمكانيات ومواهب ، نفسية وعقلية وروحية . وهى ماض وحاضر ومستقبل ، وليست حاضرا أو واقعا فقط . وهى بحث فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وبحث فيما وراء هذا وذاك ، وليست بحثا فى الواقع المادى وحده : سواء كان هذا الواقع ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا .

فالحديث عن التساوى بين الناس ، فى ضوء هـــذا الواقع الإنسانى المتشابك كله ، يغدو — على هذا الأساس — خرافة ، لا تقوم على أساس من عقل أو علم ، ولا ترتبط — من قريب أو من بعيد — بالضمير الإنسانى ، وبواقع حياة الإنسان ، على نحو ما سنرى .

---

(١) ارجع إلى ص ١٩ — ٢١ من الكتاب .

ويتصل بالحديث عن التساوى بين الناس ، خرافة أخرى ، أكثر زيفا وتضليلا ، وهى خرافة المساواة بين الرجل والمرأة .

وإذا كان كل رجل، يختلف عن كل رجل، لأن لكل رجل (شخصيته) المستقلة ، التى تختلف عن كل الشخصيات الأخرى ، التى منحها الله سبحانه للرجال ، منذ خلق الله آدم ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كانت كل امرأة، تختلف عن كل امرأة ، لأن لكل امرأة شخصيتها المستقلة ، التى تختلف عن كل الشخصيات الأخرى ، التى منحها الله سبحانه للنساء ، منذ خلق الله حواء ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فإن المنطقى ، أن يكون الاختلاف بين الرجل والمرأة ، اختلافا أشد من ذلك الاختلاف ، الذى يمكن أن نراه ، بين رجل ورجل ، أو بين امرأة وامرأة .

ذلك أن الاختلاف بين الجنسين هنا ، اختلاف فى (التكوين) الطبيعى لكل منهما ، بحيث (يتكاملان) فى الحياة ، تماما كالاختلاف فى (التكوين) الطبيعى ، بين أى سالب وأى موجب فى الحياة ، لتسير الحياة كما يجب أن تسير ، بهذا السالب والموجب معا .

ولقد أثبت العلم الحديث، أن الاختلاف بين الرجل والمرأة، ليس مجرد اختلاف ، بين أجهزة الذكورة ، وأجهزة الأنوثة ، وإنما هذا الاختلاف فى هذه الأجهزة ، هو الاختلاف الظاهر لنا فقط .

ووراء هذا الاختلاف الظاهر ... اختلافات أخرى أعمق وأكثر ، فى الأعضاء الداخلية ، ووظائف هذه الأعضاء ، ليتحقق — من خلالها — ذلك (التكامل) المنشود ، بين الرجل والمراة ، فى الحياة الإنسانية .

وموضع حديثنا عن عمق هذه الاختلافات ، هو الكتاب القادم من

السلسلة ، عن (الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة) ، بإذن الله . ولكن تجاهل هذه الاختلافات ، أو الجهل بها ، على حد تعبير الطبيب الفرنسي المشهور ، ألكسيس كاريل ، يؤدى إلى ظلم المرأة ، لا إلى إنصافها ، وإلى تهديد الحضارة المعاصرة ذاتها ، «فإن دورهن (أى النساء) فى تقدم الحضارة ، أسمى من دور الرجال » ، بشرط أن «ينمين أهليتهن ، تبعا لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور »(١) .

نعمة التفاوت بين الناس :

والتفاوت فى الخلق ، لا يقف عند حد بنى آدم ، ولكنه يتعداهم إلى خلق الله جميعا .. فلا مخلوق كمخلوق آخر ، إلا من الناحية الظاهرية فقط .

وفى مملكة النحل — على سبيل المثال — نرى الكل أمامنا يطير ، ولكن ذلك لا يعنى أن كل نحلة كأختها ، لأن المتأمل لمملكة النحل ، يرى أن هناك ملكة وذكورا وشغالة ، ولكل دوره فى حياة الخلية كلها ، وبدون هذا الدور المحدد ، ما كانت حياة النحل كله لتستقيم .

وملكة النحل ، هى أنبل مخلوقات خلية النحل ، ورغم ذلك ، لنتصور المأساة ، لو أن كل النحل كان من هذه الملكات . إن معنى ذلك أن النحل سينقرض كنوع ، لأن الملكة تحتاج إلى الذكر ، لتأتى بالجيل التالى من النحل ، وهى — كذلك — تحتاج إلى الشغالة ، ليتم جمع الرحيق ، ولتستمر الحياة .

ولنتصور المأساة كذلك ، لو كان كل النحل من الذكور ، أو من الشغالة .

---

(١) ألكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ١٠٩ .
ولنا إلى هذا الموضوع بالتفصيل عود ، فى كتابنا التالى من السلسلة ، بإذن الله .

وما يقال عن مملكة النحل ، يمكن أن يقاله عن مملكة النمل ، ومملكة الصراصير . . ومملكة الميكروبات — أو مملكة كل نوع من أنواع هذه الميكروبات . . وعن المملكة السماوية — مملكة الكواكب والمجموعات الشمسية والمجرات(١) .

فكل مملكة من هذه الممالك ، قائمة على (التنوع) بين أعضائها ، لا على المساواة بين هؤلاء الأعضاء ، ولو قامت الحياة فيها على المساواة بين أعضائها . . ما استقامت بها حياة .

وهذا التفاوت ، الذى نراه بين مخلوقات العالم الواحد ، أو النوع الواحد ، من خلق الله ، نراه بصورة أوضح . . بين الناس .

وهو تفاوت بصورة أوضح ، لأن للإنسان وضعه الخاص ، الذى اختاره له ربه يوم خلقه ، على الخريطة الكونية :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ... وعلم آدم الأسماء كلها »(٢) .

فللإنسان — فى الحياة — رسالة ، تختلف عن رسالة غيره من المخلوقات ، وله وسائله فى تحقيق هذه الرسالة ، المختلفة عن وسائل المخلوقات الأخرى فى تحقيق كل منها لرسالتها .

فكل مخلوقات الله الأخرى ، لها رسالة محددة ، هى عبادة الله ، وتسيرها

---

(١) يقوم النظام الكونى ، على أساس الدوران .. دوران الكواكب حول محور .. وهو دوران شبيه بدوران الإليكترون فى الذرة حول نواته ، حتى لاينجذب الإليكترون السالب ، إلى نواته الموجبة .. أى أن النظام الكونى يقوم على فكرة السالب والموجب أيضاً . . الموجود في كل صور الحياة من حولنا :
« ومن كل شىء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » (الذاريات — ٥١ : ٤٩) .

(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠ ، ٣١ .

فى تحقيق رسالتها تلك، (الفطرة)التى فطرها الله عليها، أو (الغريزة)التى أودعها الله فيها، ومن ثم فهى تسير فى تحقيق رسالتها، (مدفوعة) بتلك الغريزة ، دون ما كد أو معاناة ، ومن هذه الفطرة أو الغريزة ، « جاءت تلك المخلوقات العجماء ، بعلمها ودستورها»(١) ، ومن ثم ظلت «تسير على صراطها المستقيم ، مستجيبة لأمر هذا (العقل الكونى) »(٢) .

أما الإنسان ، فله نفس الرسالة ، وهى عبادة الله ، غير أن ذلك (العقل) ، الذى ركبه الله فيه ، ومن أجله كرم الإنسان ، وفضل حتى على الملائكة المقربين أنفسهم ، وكان خليفة لله فى الأرض — هو الذى جعل علاقة الإنسان (بالملأ الأعلى) ، أو (بالعقل الكونى) ، يمكن أن تقوى ، ولكنها يمكن أن تضعف أيضا .

ذلك أن هذا (العقل) الإنسانى ، صار بمثابة (مفتاح توصيل) ، يمكن أن يصل الإنسان بهذا الملأ الأعلى ، ويمكن أن يقطع عنه هذا الاتصال به .

فاتصال الإنسان بالملأ الأعلى ، ليس اتصالا غريزيا ، أو فطريا ، يتم بطريقة لا إرادية ، وإنما هو اتصال واع ، يتم — حين يتم — عن رضا واختيار ، يلعب (العقل) فيهما الدور الأساسى .

ولو تم هذا الاتصال بين الإنسان والملأ الأعلى ، فإن ذلك لا بد أن يؤدى إلى أن يصير الإنسان بحق ، كما أراد له ربه ، خليفة لله فى الأرض ، قادرا على نشر الحق والخير والجمال ، فى العالم المحيط به ، حتى يحول أرضه التى يعيش عليها ، صورة من الجنة التى طرد منها أبو الخلق آدم ، والتى وعد الله بها عباده المتقين يوم القيامة ، من حيث ما فيها من آثار مادية ، تتمثل فى

---

(١) مصطفى محمود : رأيت الله — دار المعارف بمصر — ١٩٧٦ ، ص ٨ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : أنبياء الله والحياة المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٢٧ .

(العمران) الذى يسودها ، وما فيها من آثار اجتماعية وروحية ، تتمثل فى العلاقات القائمة بين الناس من جانب ، وبينهم وبين بقية خلق الله فى هذا الكون ، من جانب آخر(١) .

ولا يمكن للإنسان أن يحول أرضه تلك ، التى يعيش عليها ، إلى جنة ، إلا إذا كان (متنوع) المواهب والملكات والإمكانيات .

ذلك أن تعمير الأرض ، لتكون (جنة) ، يحتاج إلى فكر المفكر ، وتخطيط المخطط ، وتنفيذ المنفذ ، ويحتاج إلى هندسة المهندس ، وطب الطبيب ، وصيدلة الصيدلى ، كما يحتاج إلى عقل الرياضى ، وخبرة العالم فى معمله ، وعضلات الفلاح ، وعرق العامل ، وغيرها وغيرها .

ولنتصور المأساة التى كان يمكن أن يعيشها الإنسان ، لو ادعينا — كما يهدف المخرفون من رافعى الشعارات والمتاجرين بها — أن الناس متساوون ، ولنفرض أن الناس جميعا كانوا أطباء ، أو كانوا مهندسين — ترى هل كانوا يستطيعون أن يعيشوا مجرد حياة . . وناهيك عن قدرتهم على أن يقوموا برسالتهم فى الحياة ، من حيث تعمير الأرض ، وتحويلها إلى جنة ، كجنة عدن .

ولنستطيع أن نتصور حجم المأساة ، التى كانت تتحقق نتيجة لهذه المساواة ، التى نحمد الله أنها ليس لها وجود ، إلا فى هذه العقول المريضة ، فإن علينا ان ننظر فى(رغيف العيش)، الذى يطالعنا ونطالعه، ثلاث مرات

---

(١) رأينا — فى كتابنا الخامس من السلسلة — ذلك التشابه القائم ، بين الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين ، يوم القيامة ، وبين الجنة التى يصنعونها بأيديهم لأنفسهم ، فى حياتهم الدنيا ، وذلك التشابه القائم بين النار ، التى أعدها الله للضالين المضللين ، يوم القيامة ، وبين النار التى يصنعونها لأنفسهم بأيديهم ، ويعيشون فيها ، فى حياتهم الدنيا — ارجع إلى :

— دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر والحياة المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١١٠ وما بعدها .

فى اليوم فى المتوسط ، لنجهز عليه ، ونقيم عليها حياتنا ، ونتابع قصة هذا الرغيف ، من بدايتها .

لقد كان حبا فى أحد المخازن ، وفى هـذا المخزن ، نجد أمين المخزن ، ومهندسا زراعيا أو أكثر ، وصرافين ، وعمالا ، وحمالين . . وغيرهم — ثم انتقل هذا الحب من المخزن ، إلى الفلاح ، عن طريق سيارات ، لكل منها سائق وعليها حمالون ، ويسهر على صيانتها ميكانيكية وكهربائية ولحامون وسمكرية ، وتجار قطع غيار ، وغيرهم وغيرهم .

ثم أعد الفلاح الأرض لهذا الحب ، وزرعه ورواه وتعهده ، مستعينا بغيره ، أو معتمدا على نفسه ، وسهر على خدمته حتى حصده ، وفى سهره على خدمته ، لجأ إلى رجال الزراعة ، فحصل منهم على ما تحتاج إليه خدمة زرعه ، من مواد كيماوية ، شارك فى صنعها العلماء المختلفو التخصصات ، ومهندسو المصنع ، وعماله ، وإداريوه .

وينتقل الحب بعد الحصاد إلى مخزن آخر ، ليوزع على المستهلكين ، فانتقل إلى المطاحن ، وفيها إداراتها وعمالها وميكانيكيوها و ... ثم إلى المخابز ، وفيها من فيها أيضاً ، من مختلف التخصصات والنوعيات البشرية .. ثم إلى أيدينا ، ومنها إلى أفواهنا فى النهاية .

ولو كل الناس أطباء أو مهندسين ، ما عاشوا ، لأنهم لم يكونوا سيأكلون .

ولو كان كل الناس فلاحين ، ما عاشوا أيضا ، لأنهم لم يكونوا ليجدوا الحب الذى يزرعون ، ولو زرعوه ، ما كان لينمو بدون جهود غيرهم ، ولو نما ما كانوا ليأكلوه حبا .

ولو كان كل الناس خبازين .. ما وجدوا ما يخبزونه .

وقس على هذا الرغيف حياتك كلها : ما تلبس من لباس ، وما تقيم فيه

من بيت ، وماتستخدم من آلات ومعدات ...لترى : إلى أى مدى شارك فى الشيء البسيط أمامك ، أناس متفاوتون ، لا يستطيع الإنسان أن يجزم على وجه التحديد : أيهم أشد فضلا على غيره ؟ وهل الطبيب أكثر أهمية للأحياء وهو يحارب المرض ، ويحاصره ، ويحفظ صحة الأحياء ، أم الكناس ، الذى يقوم بتنظيف البيئة و تطهيرها، فيقوم بما يقوم به الطبيب ، بطريقة أخرى ؟ أم الفلاح ، الذى يساهم فى توفير الخبز لهذا وذاك ؟ .

وقد حل القرآن الكريم هذه القضية ، كأحسن ما يكون الحل ، حيث يقول سبحانه :

— « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنابعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون »(١) .

فالكل (مسخر) لخدمة الكل ، أراد أم لم يرد ، فالطبيب مسخر لخدمة المريض ، والمدرس مسخر لخدمة تلاميذه ، ورئيس الدولة مسخر لخدمة شعبه ، والأب مسخر لرعاية أولاده ، وهلم جرا .

ويكون التفاضل بين الناس، قائما لامحالة، إلاأنه تفاضل لاتحدده (سلطة) توضع فى اليد ، أو (دخل) يصب فى الجيب ، أو ما إلى ذلك من مقاييس (التفاضل) بين الناس ، وإنما يحدده (إتقان) العمل ، وابتغاء وجه الله به ، طلبا لرحمة الله (ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وقد لخص الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، هذه (الروح) الإسلامية ، حين وصف نفسه ، للسلمين ، بأنه واحد منهم ، إلا أن الله جعله (أكثرهم حملا)، وذلك لأن (العبء) الملقى عليه ، بحكم الاستخلاف، دونه أى عبء ، ملقى على أى إنسان ، من رعيته .

(١) قرآن كريم : الزخرف — ٤٣ : ٣٢ .

فالتفاوت بين الناس نعمة ، والمساواة بين الناس نقمة ، وقى الله الناس شرها ، إعزازا منه سبحانه وتكريما،لهذا الإنسان ، الذى كرمه ربه ، يوم خلقه واستخلفه .

المساواة فى الغرب الراسمالى :

تعتبر فكرة (المساواة) من الأفكار التى ابتدعها الغرب الرأسمالى ، بعد ثورة الإصلاح الدينى به ، فى مطلع القرن السادس عشر . وقد كانت هذه الفكرة، هى الثالثة، فى ذلك الشعار، الذى رفعته الثورة الفرنسية ، حين قامت(لتدمير) كل شىء فى فرنسا ، بعد الفكرتين الأوليين:الحرية والإخاء.

غير أن الممارسات الفعلية للأفكار ، بعد الإصلاح الدينى والثورة الصناعية ، قد أطلقت المجال واسعا أمام الفكرة الأولى (الحرية)،وضيقت الخناق على الفكرة الأخيرة (المساواة) .

ولم تقم لهذه الفكرة الأخيرة قائمة ، إلا فى منتصف القرن التاسع عشر ، مع ظهور الفلسفة المثالية ، أو ابتعاثها من جديد ، بتعبير أصح ، قبل أن تتبلور على نحو آخر ، على يد ماركس وانجلز .

وهنا بدأت الحياة تعود إلى هذه الفكرة الأخيرة(المساواة)،ولكنها — رغم هذه الحياة — ظلت تترنح بين صفحات الكتب ، وفى عقول المفكرين، دون أن تستطيع اقتحام الواقع الرأسمالى الغربى ، لتتحول فيه إلى واقع حى.

ورغم ذلك، فقد كانت هذه الفكرة، هى مقوم الحياة فى العصور الوسطى، ولكن بصورة أخرى ، غير تلك التى بدت عليها بعد ثورة الغرب — ثورة الإصلاح .

ذلك أن مثالية الحياة — فى ظل الكنيسة — كانت تقوم — على حد تعبير الفيلسوف الأمريكى الكبير ، جون ديوى — على «تحقيق صلة الإنسان،

بالحقيقة الكبرى ، وهى الله، وجعله يستمتع داخليا، بتلك السعادة اللانهائية، التى تنتج عن هذه الصلة»(١). ولم تكن هذه الصلة لتتحقق للإنسان منفردا ، وإنما كانت تتحقق له، عن طريق انضمامه إلى الكنيسة، وقيادة رجل الدين له، ولغيره من المؤمنين، فقد «كان التضامن، هو السبيل الذى يتحقق كل غرض عن طريقه . فإذا كان غرض الإنسان أن يتقرب إلى الله ، كان سبيله أن يصبح عضوا وعاملا فى جماعة الكنيسة . وكانت خطايا الإنسان تغفر له ، بانضمامه إلى جماعة كبار المؤمنين . . . إلخ »(٢).

فالمساواة فى العصور الوسطى ، كانت تقوم على أساس اعتبار الناس، قطيعا بشريا كبيرا، يقوده (راعى) الكنيسة — ولفظ (راعى) هنا ، لا يقال على سبيل المجاز ، وإنما هو اللفظ الذى تحب أن تستخدمه الكنيسة ، فقد استخدمه البابا إينوسنت الرابع Pope Innocentlv ، حين قال : « إن عيسى المسيح نفسه، هو الذى خلق بطرس وأتباعه، وهو الذى أعطاهم مفاتيح مملكة السماء ، وقال لهم : هيا ارعوا خرافى Feed my sheep »(٣) .

ولم يأت البابا إينوسنت الرابع بهذا اللفظ من عنده ، وإنما أتى به من (العهد الجديد) ذاته ، فيما ينسبه إلى السيد المسيح ، مخاطبا تلاميذه :

— « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(٤) .

---

(1) DEWEY, JOHN : Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education; The Macmillan Company, New - York, 1916, p. 310.

(2) BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen & Co. Ltd., London, 1923, p. 32.

(3) THUT, I. N. : The Stroy of Education, Philosophical and Historical Fundaticn; McGraw - Hill Company, Inc, New – York, 1957, p. 87.

(٤) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الإصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .

فكل الناس — فى الفكر المسيحى — قطيع ضال ، الشر كامن فى أعماقهم(١) ، ولا ينقذهم من هذا الشر ، سوى سيرهم منقادين . . . خلف راعيهم .

ولازال لفظ (راعى كنيسة كذا)،من الألفاظ ، التى نقرؤهاونسمعها، بين لحظة وأخرى ، فى صحفنا ، وفى كتابات المسيحيين .

ولذلك سرعان ما اصطدمت (المساواة) — كفكرة — مع (الحرية)، كما سبق ، بعد الثورة الفرنسية ، لأن المساواة لايمكن أن تتحقق فى مجتمع إنسانى ، وإن كان تحقيقها على مستوى قطيع من الغنم . . . ممكنا .

ولذلك ما أن شبت (الثورة الصناعية) فى غرب أوربا،فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حتى بدأ (الصراع) على أشده ، بين طبقات المجتمع الغربى ، فى كل بلد من بلاد الغرب ، حتى لقد سمى عام ١٨٤٨ — على سبيل المثال — (بعام الثورات) ، لأنه كان بكل بلد أوربى (ثورة) فيه ، « بسبب أزمات التعطل المتكررة ،وانخفاض الأجور، وطول ساعات العمل،وسوء أحوال العمل بصورة أليمة »،و« كان السخط شائعا كذلك،فى أوساط الطبقات الأخرى »(٢) — أى بسبب الظلم الاجتماعى ، الذى ساد بعد الإصلاح الدينى ، نتيجة للتفاوت الناتج عن الثورة الصناعية ، ونتيجة لتأثيرات هذه الثورة على مختلف جوانب الحيـــاة فى الغرب — اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . . . ودينيا .

وفى إطار الديموقراطية الغربية اليوم،وكنتيجة حتمية لتطور المجتمعات الغربية بعد الإصلاح الدينى ، تطورا متنوع الجوانب ، ومتعددها ، إثرما

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة (مرجع سابق)، ص ٣٥١ .

(٢) جورج سول : المذاهب الاقتصادية الكبرى — ترجمة وتقديم راشد البراوى — الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ ، ص ٩٤ .

مرت به من ثورات متعددة متتالية ، سياسية واقتصادية وعلمية وتكنولوجية . .
نجد (المساواة) يكفلها القانون ، ويوفرها — على مستوى العمل اليومى —
حاجة كل إنسان غربى إلى الآخر ، فنجد كل إنسان فى الغرب .Mr أو
Monsieur ، أو غيرها من الألفاظ التى تدل على المساواة بين الناس .

ولا تفرقة — فى هذه المساواة — بين رجل وامرأة ، فللمرأه ما للرجل
من حقوق ، وعليها ما عليه من مسئوليات وأعباء ، وباب التعليم والعمل
والمشاركة فى الحياه العامة ، مفتوح أمامها ، مثلما هو مفتوح أمامه تماما .

إلا أن منطق (الحاجة) ، الذى يحكم هذه المساواة ، مضافا إليه منطق
(المنافسة) ، الذى تقوم عليه الحياة فى ظل الرأسمالية ، يكاد كل منهما أن
يقضى على هذا المبدأ تماما .

فمازال صاحب المصنع أو المؤسسة ، هو الذى (يتحكم) فى العاملين عنده ،
واحترامه لهم رهن بحاجته إليهم . ومن خلال النقابات وحق الإضراب ،
نجد العمال — على الصعيد الآخر — قادرين على (التحكم) فى صاحب العمل ،
وإجباره على تلبية مطالبهم .

ومازال الرجل هو الذى (يتحكم) فى المرأة ، بعد أن تعبت من الجرى
وراءه ، واحترامه لها رهن بحاجته إليها ، وذلك بسبب (انهيار) نظام
الأسرة ، وزيادة (حاجة) النساء إلى الرجال .

والذى يقرأ الأدب الغربى ، يروعه أن يقرأ لفظ Man ، بمعنى (رجل) ،
ليجدها — فى بعض الاستعمالات — تدل على (جنس) بنى آدم ، من رجال
ونساء ، ولا تقتصر فى دلالتها على الرجل وحده — وذلك يعنى أن (المرأة)
فى ضمير الحضارة الغربية ، لم يعد لها وجود ، على عكس ما يشيعه كتابها ،
والمروجون لها فى مجتمعاتنا ، بعد أن فقدت — من قبل — اسمها ، فصارت

مسز فلان أو مسز علان Mrs ، نسبة إلى الرجل الذى تزوجت به . وبعد أن فقدت مالها ، وكل ما تملك . . وذاب كله فيما يملكه زوجها .

وديست قضية المساواة ، تحت أقدام (البقاء للأصلح) ، والمنافسة القاتلة بين الغربيين ، باسم الحرية ، لأن (المساواة) كمبدأ ، قضى عليها منذ البداية ، ارتباطها (بالحاجة) إليها . . فالمبادئ لا تنجح ، إلا إذا كانت هى الأهداف ، التى يسعى الجميع إليها ، حتى ولو أدت بهم إلى أضرار ومغارم . وعندما تتحول الأهداف ، إلى وسائل لغايات . . تهبط إلى مستوى الوسيلة ، ولكنها لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الهدف .

فالوطنية ، والتضحية فى سبيل التراب الوطنى ، وكرامة الوطن وعزته . . هدف ، تتحدد خطوات كل مواطن على أساسه . . فعلى هداه ، يعمل الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والعالم فى معمله . . فيرتفع شأن الوطن ، ويصان التراب الوطنى . ولكن عندما تتحول الوطنية إلى وسيلة . . تنقلب كل المعايير ، ويتخلف الوطن بدلا من أن يتقدم ، ويشقى أبناؤه ، بدلا من أن يستريحوا ويحسوا بالأمن .

وقصة مصر عبد الناصر ، لازالت ماثلة فى الأذهان العربية حتى اليوم ، وشبيه بها ما يحدث على الساحة اليوم ، فى معظم البلاد العربية . . ومن أجل ذلك كان هوان الغرب ، فى أرضهم ، وعلى الساحة الدولية أيضاً .

وهو على النقيض تماما مما يحدث فى الجبهة المقابلة . . فى إسرائيل .

فالوطنية ، وإقامة دولة إسرائيل ، من النيل إلى الفرات . . تمهيدا لسيطرتها على العالم ، هدف واضح أمام كل إسرائيلى ، يسعى اليمين واليسار فى إسرائيل لتحقيقه ، كما تسعى الصقور والحمائم فيها لتحقيقه أيضاً . . وتتغير الوزارات . . ولكن الهدف لا يتغير .

أما الوطنية فى معظم البلاد العربيـة ، فقد صارت مجرد وسيلة لتحقيق أهداف أخرى .. واضحة تماما فى البلاد العربية ، وهى جمع المال ، أو زيادة السلطة والنفوذ ، أو . . ومن ثم انتشرت الرشوة والمحسوبية ، وانتشر الفساد والانحلال ، وأصبح كل عربى — أراد أم لم يرد — عبئا على أهدافه ومثله العليا — بدلا من أن يكون عونا لها . هـذا إن بقى — تحت وطأة كل هذه المفاسد والشرور — مكان للأهداف والمثل العليا .

ولم يكن غريبا ، أن تتحول المجتمعات الغربيـة اليوم ، إلى (مجتمعات عصابات) ، نجد فيها العصابات (الشرعية) ، التى (استطاع) أصحابها أن يصلوا إلى القوة والنفوذ والمال والجاه ، بطريقة شرعية ، من خلال المنافسة ، كما نجد فيها العصابات (غير الشرعية) ، التى (فشل) أصحابها فى أن يصلوا إلى شىء ، فرفضوا أن تدوسهم الأقدام ، وأصروا على أن يثبتوا وجودهم ، من طريق آخر ، وإن لم يرض عنه القانون ، كما رأينا عند حديثنا عن قضية الحرية فى الفصل الثانى(١) .

ويزيد عدد هـذه العصابات غير الشرعية اليوم فى الغرب ، بشكل لافت للنظر .

ولم يكن غريبا — كذلك — أن تتفجر الفكرة المثالية ، التى تقوم على صهر الاتجاهات الفردية ، فى بوتقـة الدولة ، بشكل يكاد يلغى الوجود الفردى ، والحرية الفردية .. فى الغرب أيضاً .

وكأثر من آثار هـذه الفكرة المثالية . . كانت الفكرة الاشتراكية الحديثة . . أو الشيوعية ، التى تفجرت فى ألمانيا ، فى أخريات القرن التاسع

---

(١) ارجع إلى ص ٥٢ ، ٥٣ من الكتاب .

عشر ، كما رأينا عند حديثنا عن قضية الحرية فى الفصل الثانى(١) ، وكما سنرى فيما بعد .

المساواة فى الشرق الشيوعى :

وللحقيقة ، فقد نجح الشرق الشيوعى ، فى قضية (المساواة) هذه ، أكثر مما نجح الغرب الرأسمالى . ذلك أن الجمع بين (الحرية) و (النظام) ، وهما بطبيعتهما — كما سبق — متناقضان ، لا يجتمعان ، هو الذى أفسد على الغرب إمكانية نجاحه ، فى هذه القضية .

وقد حل الشرق الشيوعى هذه القضية ، بمصادرته — كما سبق فى الفصل الثانى(٢) — للحريات ، وكانت هذه المصادرة ، هى التى أفسحت المجال للمساواة — أن يقوم عليها تركيز الشيوعيين .

والشيوعية ليست فكرة إقليميـة أو محلية أو قومية ضيقة ، وإنما هى فكرة عالمية واسعة ، تقوم على تحطيم كل هذه العوائق والقيود ، التى تحول دون قيام (وحدة إنسانية) ، تربط بين الطبقة الكادحة فى العالم كله ، ومن ثم فهم يرون أن « الحرب لا يمكن أن تنتهى ، ما لم تنته الطبقات ، وتخلق الحرية الاجتماعية » ، كما أنهم « يؤيدون الحروب الأهلية تأييداً كاملا ، لأن مثل هذه الحروب ، إنما تشنها الطبقات المهضومة ، على الطبقات الظالمة ، فهى كحروب العبيد ضد مالكيهم ، وهم يعتبرون مثل هذه الحروب ضرورية ، وقانونية ، وتقدمية »(٣) .

ولم يأت لينين بكلامه هذا ، الذى يعلن فيه الحرب على الحكومات

---

(١) ارجع إلى ص ٥٤ ، ٥٥ من الكتاب .

(٢) ارجع إلى ص ٥٥ وما بعدها من الكتاب .

(3) LENIN, V. I. : The National Liberation Movement in the East; Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1957, p. 95.

والنظم القائمة ، تمهيداً لسيطرة البروليتاريا (الطبقة العاملة) على مقدرات الأمور ، من عنده ، وإنما هو صلب (الماركسية) ، وكان منطق ماركس وإنجلز فى هذا التقويض ، كما ظهر فى (البيان الشيوعى) ، الذى أصدراه قبيل تفجر ثورات ١٨٤٨ ، هو « أن كل الطبقات ، التى كانت تستولى على السلطة فيما مضى ، كانت تحاول تثبيت أوضاعها المكتسبة ، بإخضاع المجتمع بأسره ، لأسلوب التملك الخاص بها . ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية ، إلا بهدم أسلوب التملك الخاص بها حاليا ، وبالتالى بهدم كل أسلوب للتملك ، مرعى الإجراءات ، إلى يومنا هذا . ولا تملك البروليتاريا شيئاً خاصا بها ، حتى تصونه وتحميه ، فعليها إذن أن تهدم كل ما كان يحمى ويضمن الملكية الخاصة »(١) .

فهو منطق (الحقد) ، الذى تقوم عليه الماركسية ، والذى يدفع الماركسيين ، بالشعارات البراقة ، إلى تحريك « كتل الغوغاء ، ويتملقون كثرة العمال والفلاحين ، وينادونهم بالطليعة وصناع التاريخ وبناة المستقبل ، لا عن صدق واقتناع ، ولكن عن انتهازية ، ليستعملوهم فى عمليات التهييج والتحريض »(٢) .

ولم يكن أدولف هتلر ، مجاوزا الحقيقة ، حين ربط بين الماركسية والصهيونية ، ورأى أن « الماركسية العالمية ، إن هى إلا نظرة عامة إلى العالم — قديمة — أعيدت ثانية على لسان اليهودى ، كارل ماركس » . « وقد كان كارل ماركس فى الحقيقة ، مجرد واحد ، من بين الملايين ، الذين تعرفوا بعين نبى ثاقبة ، على مقتل عالم متعفن ، بالسم المناسب له ،

---

(١) ماركس وإنجلس : بيان الحزب الشيوعى — دار التقدم — موسكو — ١٩٦٧ ، ص ٥٢ .

(٢) مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية — حوار مع خالد محيى الدين — المكتب المصرى الحديث — ١٩٧٦ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

ولخص القضية كلها ، كما لو كان بفنون سحرية ، فى حل مركز ، يصل بالعالم بسرعة ، إلى تدمير الوجود المستقل للأمم الحرة على ظهر الأرض ، وكل ذلك لخدمة سلالته الخاصة »(١) .

فهى — كالماسونية والفرويدية والروتارى وغيرها — وسيلة من وسائل سيطرة بنى إسرائيل ، على العالم كله ، كما سنرى فى كتابنا ، الذى سنخصصه لبنى إسرائيل ، من كتب هذه السلسلة ، بإذن الله (٢) .

ومن خلال التهييج والتحريض ، يتم استيلاء الماركسيين على السلطة ، ويرتبطون بموسكو ، أو بكين ، ويتم تنفيذ المخططات الماركسة اليهودية ، بالحديد والنار .

ويتم تحطيم كل شىء . . بما فى ذلك العمال والفلاحون .

ولقد كان ضحايا الفلاحين فى سنتين اثنتين من حكم لينين ، بعد توليه السلطة فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩١٧ ، أضعاف أضعاف ضحاياهم تحت حكم الإقطاع ، طوال ما يقرب من عشرة قرون ، من العصور الوسطى الأوربية ، التى كان الإقطاع أحد أعمدتها الثلاثة(٣) .

ومع تحطيم كل شىء ، يحكم الشيوعيون قبضتهم على كل شىء ، وعلى

---

(1) HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II;The Paternester Libray, 1937, p. 149.

(٢) تم كتابة هذا الكتاب بالفعل ، إثر مبادرة الرئيس أنور السادات للسلام ، قبل أن تؤتى المبادرة أية ثمار ، سلبية كانت أو إيجابية ، حتى تكون الكتابة عن بنى إسرائيل ، كتابة غير متحيزة ، لوجهة نظر مسبقة . إلا أننى أجلت نشر الكتاب ، حتى يأخذ دوره فى السلسلة ، وسيكون بإذن الله ، الكتاب الثانى عشر أو الثالث عشر ، منها .

(٣) كانت الأعمدة الثلاثة ، التى تقوم عليها الحياة فى أوربا العصور الوسطى ، كما هو معروف ، هى الملكية والكنيسة والإقطاع ، وإلى هذه الدعائم الثلاث ، اتجهت الثورة الفرنسية — أول ثورة أوربية — بمعاول هدمها .

كل إنسان.. ويكون الباب مفتوحا على مصراعيه، أمام الوصوليين والمتسلقين، موصداً تماما أمام أى رأى مخالف، أو فكر حر ...

ويبدأ الاشتراكيون الثوريون، يتحولون إلى كبار ملاك، بما ينهبونه من قصور وممتلكات، وما يسرقونه من أموال عامة.. يراق فى سبيل تكوينها عرق العامل والفلاح .. ودمه .

وقد شهدنا نحن فى مصر، من هؤلاء الثوريين، ما لانزال نعيش آثاره، وقد سمعنا — بعد زوال العهد الأسود — عن سرقات لصغار (الكهنة)، تصل إلى الملايين، فكيف بسرقات كبارهم، ومن هم فوق هؤلاء الكبار ؟

وكيف بمن يمسك بالخيوط كلها بين أصابعه، ومن خلالها يحرك الكبار والصغار معا ؟

وتغدو فكرة (المساواة)، الحلم القديم، واقعا مؤلما، وكابوسا ثقيلا، يعيشه العمال والفلاحون الشرفاء، الذين يعتمدون على العرق — وحده — وسيلة لكسب لقمة العيش النظيفة .

ولذلك يرى المرحوم عباس العقاد، أن « من الأوهام الشائعة، أن الحكومة الماركسية، هى حكومة العمال والصناع »، وأن « الجماعات أو اللجان، التى يسمونها بالسوفييت، ليست هى جماعات مؤلفة من العمال والصناع، كما يخطر على البال، ولكنها جماعات مختلطة من المديرين، والمشرفين على المصانع، والقائمين بتنفيذ المشروعات الاقتصادية »(١)، وأن « هذه الطبقة — طبقة الحاكمين فى البلاد الشيوعية — تأخذ الأقوات، من أفواه العاملين، لتنفقها على جيوش من الجواسيس والأرصاد، وعلى جيوش

---

(١) عباس محمود العقاد : أفيون الشعوب، المذاهب الهدامة — الطبعة الخامسة — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٥، ص ٦١، ٦٢ .

من العساكر والضباط ، وعلى جيوش من الدعاة والمداحين »،وأنها « تنفرد بعيشة الرخاء ، وتختار لنفسها ماتشاءمن المساكن والأطعمة ، وتأمر وتنهى ، وتعز وتذل » ، وغايتها من كل ذلك ،«أن تحمى وجودها ، وتحفظ نفوذها، وتقطع الطريق على كل منافسة تخشاها ، ولو هلكت الأيدى العاملة ، وطال عليها عهد التسخير والتضليل .

ولم يحدث قط فى التاريخ ، أن سلطانا غاشما مستبدا ، أنفق من الأموال على السلاح والجاسوسية ، ما ينفقه هؤلاء الطغاة المستبدون ، فى بلاد الشيوعيين »(١) .

كما يرى أن « رأس المال زال من البلاد الروسية ، وزال معه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها ، وظهرت — مع هذا — طبقة حاكمة ، من الخبراء والمهندسين ، لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها ، طبقة حاكمة ، فى أشهر البلاد باستبداد نظم الصناعة ورءوس الأموال ... »(٢) .

والصيحة بالعالمية ، وبالأخوة الإنسانية ، هى الأخرى خدعة ، كخدعة المساواة .

وهدف الخدعة ، هو دفع الأموال للحاقدين فى مجتمعاتهم،حتى يثوروا ويستولوا على السلطة ،ويربطوا الفلك كله ، بالاتحاد السوفيتى أو الصين .

ولنأخذ الدرس من الاتحاد السوفيتى — أول مجتمع شيوعى معاصر .

إنه اتحاد يتكون من خمس عشرة جمهورية(٣) ، واقعة فى قارتى أوربا

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (مرجع سابق) ، ص١٨٨.

(3) HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958, p. 308.

وآسيا ، لا تعدو الجمهورية الروسية ، إلا أن تكون واحدة من هـــذه الجمهوريات ، وإن كانت — إداريا — تقود غيرها من الجمهوريات ، فى كل شىء . وتختلف كل جمهورية من هذه الجمهوريات،عن غيرها من الجمهوريات، فى قوميتها وطبيعتها وتراثها ولغتها ، ومقوماتها التاريخية(١) .

كذلك يضم الاتحاد السوفيتى ، أربعين قومية(٢) ، منها « التاجيك والأوزبك والأرمن والتتار ، والداغستانيين ، وغيرهم من القوميات المختلفة ، التى تتباين فى خلفيتها الثقافية واللغوية والعنصرية »(٣) — ولا تعدو القومية الروسية ، أن تكون واحدة من هذه القوميات الأربعين .

كذلك نجد فى الاتحاد السوفيتى ١٨٠ لغة،مستخدمة فى الحياة اليومية(٤)، لا تعدو اللغة الروسية ، أن تكون مجرد واحدة منها. ومع ذلك نجد القومية الروسية — وهى قومية بيضاء ، أوربية — والجمهورية الروسية — وهى جمهورية واقعة فى الجزء الأوربى من الاتحاد السوفيتى — تقودان سائر القوميات والجمهوريات الأخرى — غير الروسية(٥) ، وتعملان على سلبها

---

(1) CHKHIKVADZE, V. M. (Edited by) : The Soviet Form of Popular Government; Progress Publishers, Moscow, 1972, p. 142.

(٢) نذكر هنا بأن القومية العربية — على سبيل المثال — ممزقة إلى أشلاء كثيرة ، رغم أن لها مقومات واحدة ، تجمع بين أشلائها الممزقة هذه، وهى قومية واحدة ، فكيف يكون الحال مع أربعين قومية ، فى داخل نظام واحد ؟ .

(٣) الدكتور محمد منير مرسى (مرجع سابق) ، ص ١٥٣ .

(4) HANS, NICHOLAS; Op. Cit., p. 55.

(٥) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : « دراسة مقارنة ، للادارة المدرسية — اتجاهات جديدة ، فى الإدارة المدرسية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ٢٥٩ ؟

— KAZAMIAS, ANDREAS M. and MASSIALAS, BYRON G. : Tradition and Change in Education, A Camparative Study (Foundations of Education Series); Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J., 1965, p. 102.

مقوماتها الثقافية والتاريخية،(لتذويبها)فى إطار الجمهورية الروسية ، والقومية الروسية . كما يفرض على أبناء هذه الجمهوريات ،اللغة الروسية .

ويلاحظ المرحوم عباس العقاد ، أن العمل جاد ، منذ الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ ، على « محو معالم القومية فى هذه الشعوب (غير الروسية) ، وقطع كل علاقة حية ، بينها وبين تراث اللغة والتاريخ فيها »، وأن هذا العمل هو « زبدة المبادئ ، التى تعلنها قرارات الحزب ، وتذيعها الصحف الرسمية ، يشرحها فى الكتب والمنشورات ، علماؤها المجندون ، لتنفيذ برامجها الثقافية »(١) .

وقد « حاقت اللعنة بالأدباء ، الذين يذكرون أوطانهم بالثناء، ويفخرون بالانتماء إليها »(٢) .

ولا تقف مسألة (الصب) فى القالب الروسى ، أو (تذويب) الكيانات غير الروسية، فى الكيان الروسى ، عندحد الجمهوريات والقوميات، التى تدخل فى إطار الاتحاد السوفيتى ، بل إنها تتعدى هذه الجمهوريات — والقوميات — إلى البلاد الأخرى ، التى شاء لها حظها السيئ ، أن تقع — بعد الحرب العالمية الثانية — فى قبضة السوفيت ، حيث يلاحظ « انتقاصهم من استقلال الدول التابعة لنظامهم» ، وحيث « لم يتح لشعوب أوربا الشرقية حرية اختيار ممثليهم ، أو إبداء الرأى فى السياسات المتبعة فى بلادهم »(٣) .

وهـــذه هى قصة الحرب الطويلة ، التى خاضها تيتو الشيوعى ، فى

---

(١) الفريد زاوبرمان : الاستعمار الاقتصادى وأساليبه، درس من أوربا الشرقية — الكتاب الخامس من سلسلة (كتب الناقوس) — ترجمة محمد سامى عاشور — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣٦ — من المقدمة ، للأستاذ عباس محمود العقاد .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ — من المقدمة للاستاذ عباس محمود العقاد .

(٣) ب . ج . وودز : التعاون الاقتصادى وأساليبه — الكتاب الثانى من سلسلة (كتب الناقوس) — مراجعة وتقديم عباس محمود العقاد — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

يوغوسلافيا ، ضد الاتحاد السوفيتى ، حين رفض التبعية لموسكو ، فحاربته روسيا الشيوعية ، أكثر مما حاربته أمريكا الرأسمالية .

بل هذه هى قصة الصين ، وحربها ضد السوفيت ، منذ قيام الثورة الماوية بها سنة ١٩٤٩ ، ورفض هذه الثورة تبعية بكين لموسكو .

بل وهذه هى قصة (انشطار) العالم الشيوعى إلى معسكرين كبيرين ، الحرب بينهما أكثر ضراوة ، من تلك الحرب القائمة بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى .

والمعسكر الصينى يتهم الروس ، بأنهم مستعمرون بيض . . شأنهم شأن الأمريكيين[١] ، وبأنهم إمبرياليون . . إلى آخر هذه الشتائم ، التى يخصصها المعسكر الشيوعى للغربيين . . وبأن الشعار المرفوع فى الصين خصوصا ، وفى جنوب شرقى آسيا على وجه العموم[٢] ، هو أن (الجنس الأصفر) ، سيحكم العالم .

أى أن المنطق الصينى ، يقوم على أساس أن الغرب الرأسمالى ، قد افتضح أمره فى العالم الثالث ، كما افتضح أمر الاتحاد السوفيتى ، ومن ثم صار الجو مهيأ ، لأن يكون المد صينيا . . خاصة وأن الصينيين ينتمون — بلونهم على الأقل — إلى شعوب العالم الثالث — مهد الثروات الطبيعية فى عالمنا المعاصر ، والذى يستطيع من يسيطر عليه ، أن يسيطر على العالم كله .

---

(١) نذكر هنا ، بأن الجمهورية — والقومية — الروسية ، التى فرضت نفسها على الجمهوريات — والقوميات — الأخرى ، غير الروسية ، فى الاتحاد السوفيتى ، والتى تقود الحياة فى الاتحاد السوفيتى كله ، إن هى إلا جمهورية — تقع — جغرافيا — فى أوربا ، وأهلها بيض ، كالأوربيين ، وهم يختلفون كثيرا — حتى من حيث الشكل — عن كثير من أبناء الاتحاد السوفيتى ، غير الروس .

(٢) هو مرفوع كذلك فى اليابان ، والهند .

وفى ظل سلسلة أخطاء الاتحاد السوفيتى السياسية، مع شعوب العالم الثالث، تمد الصين يد المساعدة ، بالطعام والملابس والبطاطين . . انتظارا لهذا اليوم . . الموعود .

وهكذا تغدو (المساواة) فى الشرق الشيوعى ، بريقا ، يخطف عيون المحرومين والكادحين ، حتى لا يروا طريقهم . . فيقعوا فى (القبضة الحديدية الحمراء) . . ثم يذوبون — إجباريا — فى إطار الثقافة الروسية — أو الصينية — ويقسمون إلى طبقات اجتماعية أكثر حدة وعنفا وغلظة ، لا تحددها الكفاءة ، وإنما يحددها الولاء . . لموسكو ، أو لبكين ، ثم يقعون — فى النهاية — فى قبضة سلطة غاشمة ، لا تعرف النقد ، ولا ترضى به ، « فانتقاد الحكومة ومؤسساتها ممنوع منعاً باتاً ، فى روسيا السوفيتيه مثلا »(١) ، مثلما هو ممنوع فى الصين . . وفى أى نظام ديكتاتورى آخر . فإذا ما تم نقد ، فإن هذا النقد يكون مسموحا به ، ومخططا له ، لتحقيق أهداف تريد تحقيقها السلطة الحاكمة ، إما ضد شخص ، أو ضد نظام ، أو كمجرد بحث عن (كبش فداء)(٢) ، تعلق عليه السلطة الحاكمة ، كل مفاسد الحكم ومظالمه ، وتمتص من خلاله غضب النفوس .

المساواة فى الاسلام :

ووردت قضية (المساواة) فى الإسلام ، سواء فى القرآن وفى السنة ، ولكن على نحو بعيد عما وردت عليه ، فى الرأسمالية والشيوعية معاً .

لقد وردت قضية (المساواة) فى الفكر الرأسمالى ، كرد فعل لواقع العصور الوسطى ، الذى كان يقوم على تقسيم المجتمع الأوربى ، إلى سادة

---

(١) بيتر م . بلاو : البيروقراطية فى المجتمع الحديث — ترجمة اسماعيل الناظر ، ومعد كيالى — دار الثقافة — بيروت — ١٩٦١ ، ص ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

متحكمين ، وعبيد ، يتحكم فيهم هؤلاء السادة . وكان يمثل هؤلاء السادة ، الفئات الممتازة فى المجتمع الأوربى ، وهى فئات الملوك والأمراء ، والإقطاعيين ورجال الدين . أما العبيد ، فكان يمثلهم قطاعات المجتمع العريضة ، من عمال وفلاحين وتجار وأصحاب مهن مختلفة ، ممن يمثلون (الخراف) ، التى تكون هذا القطيع الأوربى الضخم ، الذى رأيناه عند حديثنا عن (المساواة فى الغرب الرأسمالى)(١) ، ورأينا الكنيسة تتحكم من خلال(رعاتها)،وعلى رأسهم البابا — (راعيها)الأكبر — تتحكم فى شئون الروح ، تاركة للدولة التحكم فى شئون السياسة ، وللإقطاع التحكم فى الشئون الاقتصادية ، فقد «كانت الطبقات فى القرن الحادى عشر ثلاثا ، هى : الأشراف الذين يحاربون ، ورجال الدين الذين يصلون ، والفلاحون الذين يشتغلون . وأصبح هذا التقسيم تقليدا ثابتاً ، إلى حد ظن الناس معه أنه منزل من عند الله . وكان معظم الفلاحين ، كما كان معظم النبلاء ، يرون من واجب الإنسان ، أن يبقى فى الطبقة التى ولد فيها ، قانعا بهذا البقاء ، صابرا عليه»(٢) .

وفى هذا الإطار من (العبودية) ، كانت تتم (المساواة) بين الطبقة العاملة . . فى الظلم ، ولكن البون كان شاسعا بينها وبين غيرها من الطبقات المميزة .

ووردت قضية (المساواة) فى الفكر الاشتراكى ، او الشيوعى(٣) ،

---

(١) ارجع الى ص ٧٨ ، ٧٩ من الكتاب .

(٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافه والتربية فى العصور الوسطى (مرجع سابق) ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) نذكر هنا بما قلناه من قبل ، من أن كل المجتمعات التى تسمى اليوم بالمجتمعات الشيوعية،ليست إلاجتمعات اشتراكية ، لمتصل بعد الى درجة الشيوعية،وإن كانت تدعى أنها فى الطريق إليها .

كما سبق(١) ، كرد فعل لما أدت إليه (الحرية) الرأسمالية ، من مظالم اجتماعية ، فكانت المساواة ، هى (الشرك) ، الذى رآه المفكرون الاشتراكيون ، للإيقاع بضحاياهم .

ومن ثم كانت (المساواة) هنا ، كالمساواة هناك . . مجرد رد فعل ، لواقع اجتماعى قائم ، يقوم على التفرقة بين الناس ، وعلى التمييز بينهم .

ولكنه رد فعل . . لم يتعد الورق المكتوب .. إلى حيز الواقع المؤلم ، فى قيامه على التفرقة والتمييز .

وعندما وردت قضية (المساواة) فى الإسلام ، لم ترد كرد فعل . . وإنما وردت كجزء أساسى فى الأيديولوجيا الإسلامية ،متصل بنظرة الإسلام إلى الله ، وإلى الكون ، وإلى العالمين ، الفيزيقى والميتافيزيقى . . وإلى الإنسان ، وغيره من خلق الله ، وطبيعة هذا الإنسان ، والوظائف المنوطة به فى حياته الدنيا .

ومن ثم نجد المساواة بين الناس — كل الناس — قائمة فى الإسلام .

كما نجد التفرقة التامة . . بين كل إنسان ، وغيره من بنى آدم . . قائمة فى الإسلام أيضاً .

وبذلك حل الإسلام قضية (المساواة) ، المعقدة هـــذه ، كأحسن ما يكون الحل ، وكأقرب ما يكون إلى طبيعة ذلك الإنسان ، وإلى ضميره وعقله ، بعيدا عن ردود الأفعال ، وما تحمله من شطط ، وبعد عن القصد .

واستطيع ان ادعى ، ان (التفرقة) بين الناس ، هى الأساس فى الفكر الإسلامى ، دون ما خوف من أن يكون فى ذلك إساءة إلى هذا الفكر ، أو من أن يكون ذلك حكما عليه ، لا له .

---

(١) ارجع إلى ص ٨٣ ، ٨٤ من الكتاب .

ذلك أن معالجتى للقضايا فى هذه السلسلة ، لم تقم ولن تقوم ، على أساس اتخاذها (بوقا) ، يدعو إلى الإسلام ، سالكا فى سبيل ذلك شتى السبل ، وإنما هى تقوم على أساس المعالجة العلمية الهادئة لهذه القضايا . . مخاطبا فى هذا العلاج ، ضمير الإنسان وعقله .. قبل أى شىء آخر .

ولذلك كان الفكر الإسلامى ، يدور حول هـذه (التفرقة) بين الناس، قبل أن يدور حول ما بين الناس من (توحد) . وبهذه التفرقة ، يستطيع الإنسان فى الإسلام ، « وهو مخلوق ذو رسالة — من أن يقوم برسالته فى مجتمعه ، وأن يؤدى دوره فى الحياة الاجتماعية ، ولولا هذا الاختلاف فى الميول والاتجاهات ، ما كان هـذا التنظيم الاجتماعى ، والتكامل الإنسانى »(١) .

ولذلك — أيضا — كانت التربية الإسلامية، تدور حول اكتشاف هذه (الفروق الفردية) وتذكيتها ، حيث يرى الفيلسوف الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٣ هـ = ١٠٣٦ م) ، أنه « ينبغى لمدير الصبى ، إذا رام اختيار صناعة ، أن يزن أولا طبع الصبى، ويسبر قريحته »(٢)— قبل أن ترى التربية الحديثة ، فى الشرق والغرب على السواء ، ذلك ، بما يقرب من عشرة قرون من الزمان .

وعلى أساس هذه التفرقة بين الناس ، كانت التفرقة فى توزيع (الأدوار) عليهم ، فكانت أعباء الخليفة أثقل الأعباء . . لمسئوليته عن الرعيـة كلهم ، وعن إقرار الحق والعدل بينهم ، ودون هـذه الأعباء بكثير ، أعباء هذه الرعيـة . كما كانت أعباء رب الأسرة ، أثقل من أعباء أى فرد من

(١) حسن عبد العال : التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى — الكتاب الأول من سلسلة (مكتبة التربية الإسلامية) — إشراف دكتور إبراهيم عصمت مطاوع ، ودكتور عبد الغنى عبود — تقديم دكتور عبد الغنى عبود — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن سينا : كتاب السياسة — نشره — لويس معلوف — مجلة المشرق — ١٩٠٦ م ، ص ١٠٧٥ .

أفرادها . . وهكذا . بل إن أعباء الرجل والمرأة فى الأسرة، متفاوتة، بحيث تناسب — فى تفاوتها — ما بين الرجل والمرأة من اختلاف فى الطبيعة، ومن قدرة على تحمل أعباء دون أعباء .

ولا يعنى أن أعباء الخليفة أكثر من أعباء الرعية وأكبر، فضل الخليفة على هؤلاء الرعية، بل على العكس، يعنى أن حسابه أمام الله أعسر. كما لا يعنى أن أعباء رب الأسرة أكثر من أعباء أفراد أسرته وأكبر، فضل رب الأسرة، بل على العكس، يعنى أن حسابه أمام الله أعسر .

وبنفس المنطق، نجد أعباء الرئيس — أى رئيس — أكبر من أعباء مرءوسيه، ومن ثم نجد حسابه أمام الله أعسر، كما نجد أعباء الغنى أكثر من أعباء الفقير، وأعباء القوى أكبر من أعباء الضعيف، وهكذا، لأن مسئوليات كل منهم أمام الله أكبر . . وبالتالى فإن حساب كل منهم أمام الله أكبر . . وبالتالى فإن حساب كل منهم أمام الله سيكون أعسر .

يضاف إلى ذلك، أن (الإمكانيات) المتاحه لكل إنسان . . مختلفة عن تلك الإمكانيات، المتاحة لغيره من الناس .

ورغم ذلك، فإن الكل سيحاسب . . وبدقة متناهية . . على ما قدمت يداه، وفق ما زوده الله به من إمكانيات — عقلية ونفسية ومادية واجتماعية وغيرها .

وهنا ينتقل الإسلام من مسألة (التفاوت) بين الناس، أو (التفرقة) الطبيعية بينهم، إلى مسألة (المساواة) بين الناس .

وتبدو هذه المساواة أوضح ما يكون . . فى الحساب، أمام الله سبحانه، يوم القيامة .

ولكن الحساب مسألة أخروية، لا تتصل بالحياة الدنيا — فلندع

هذا الحساب الأخروى ، لننتقل إلى هـــذه المساواة الإسلامية ، فى الحياة الدنيا .

وهى (مساواة) فى الفرصة الممنوحة لكل إنسان ، مسلما كان أو غير مسلم ، أبيض كان أو أسود أو أصفر . . رجلا كان أو امرأة . . أن يأتى بخير ما عنده :

— «يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير»(١) .

ويعلق الشهيد سيد قطب ، على هذه الآية الكريمة ، بقوله : «وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات فى الأرض ، وترخص جميع القيم ، التى يتكالب عليها الناس ، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد ، يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى فى ظل الله . وهـذا هو اللواء ، الذى رفعه الإسلام ، لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها . «وقد حارب الإسلام هـذه العصبية الجاهلية ، فى كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانى العالمى ، فى ظل راية واحدة : راية الله»(٢) .

ومن هنا ، كانت تلك المنزلة التى احتلها أمثال بلال وعمار وصهيب . . وقد كانوا عبيدا أرقاء . . من منزلة فى الإسلام ، بعد أن «أعطاهم الإسلام» «وجودهم ، الذى كان ضائعا ، وإنسانيتهم التى كانت ضالة ، وأرواحهم

---

(١) قرآن كريم : الحجرات — ٤٩ : ١٣ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد السادس (الأجزاء : ٢٦ — ٣٠) — طبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٣٣٤٨ .

التى كانت مضيعة »(١) — فى الوقت الذى هبط بأمثال أبى جهل ، من عليائهم إلى حضيض . . رغم ما كانوا يتمتعون به فى قريش ، من منزلة سامية ، تتمنى أن ترقى إليها جباه كثير من الأحرار ، ممن كانوا يملكون أمثال بلال وعمار وصهيب ، وذلك لأنهم فقدوا — وهم سادة — كل أسباب هذه الإنسانية .

ومن هنا أيضاً ، كانت تلك (المساواة) فى الأهمية تقريباً ، بين المؤمنين الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية ، فى أيام الإسلام الأولى ، وفى حضانة خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، وحضانة خلفائه الراشدين، وقد كان هؤلاء المؤمنون يجمعون بين بلال ، الحبشى الأسود ، وصهيب ، الرومى الأبيض ، وغيرهما ، لأنهم جميعاً عباد « رب العالمين ، رب العربى والأعجمى ، ورب الأبيض والأسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لا يستأثر بقوم ، ولا يؤثر قوما على قوم ، إلا من عمل صالحا ، واتقى حدود الله »(٢) .

ومع المساواة بين المؤمنين فى الإسلام ، مع الاعتراف بما بينهم من (فروق فردية) ، واحترام هذه الفروق ، كان أن « أحاط بالنبى عليه السلام ، نخبة من كبار الرجال ، مختلفون فى الأعمار والأقدار ، مختلفون فى البيئات والأحساب ، مختلفون فى الأمزجة والأخلاق ، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات ، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الإسلام ، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق ، وتعدد الجوانب ، فى نفس ذلك الإنسان العظيم »(٣) ، وكان « من تمام

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان (مرجع سابق) ، ص ١٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — دار الإسلام — القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧٧ .

(٣) عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال ، ص ٤٧ .

الدعوة المحمدية ، أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة » ، « فإذا الأمة العربية كلها ، كأنما هى حشد مستعد بكل عدة ، متزود بكل زاد »(١) .

ويرى محمد قطب ، أن سر قوة الإسلام ، كما أظهرها تاريخه الطويل ، هى هذه النزعة (الفردية) التى رعاها ، فى إطار (المجموع) ، أو فى إطار (المساواة) بين مجموع المؤمنين ، وأن « الإسلام يعالج كلتا النزعتين ، فيغذيهما معا ، ويجعلهما متساندتين ، بدلا من أن يكونا متنازعتين » ، وذلك « بربط القلب البشرى بالله » ، و « هذه الصلة الفردية الشخصية بالله ، هى التى تمنح الإنسان وجوده المستقل ، فلا ينبهم ، ولا يضيع فى القطيع » . كما أنها هى التى تؤدى « لبث الروح الجماعية فى قلب الإنسان »(٢) .

فالإسلام — على حد تعبير المرحوم البهى الخولى — « يعترف للفرد بفرديته » ، ولكنه « لم يهمل خطر النزعات الفردية فى الفساد والإفساد ، حين يطلق لها العنان بلا ضابط »(٣) .

وهذا هو اختلاف المساواة فى الإسلام ، عنها فى أى نظام آخر ، قديم أو حديث ، وهو اختلاف يشرف به الإسلام ، ولا تشرف به النظم الأخرى .

ذلك أن المساواة فى الإسلام لم ترفع كشعار ، ولم ترد كرد فعل ، لواقع قائم . وإنما هى ترد — حين ترد — تحليلا لواقع قائم ، فى الطبيعة الإنسانية . ومن ثم جاء العلاج لها ، علاجاً علميا موضوعياً ، ولم يجىء

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق — الطبعة الثامنة — دار المعارف بمصر — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥م ص ٧٠ .

(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ١٢٠٢ — ٢٠٥ .

(٣) البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى ، بين النظرية والتطبيق — مكتبة وهبه ، ص ١١١ .

علاجا ينظر إلى القضية ، من زاوية واحدة فقط من زواياها ، كما فعلت النظم الأخرى .

ومن ثم لم تصطدم المساواة فى الإسلام ، بالحرية التى يوفرها لكل إنسان ، مسلما كان أو غير مسلم ، كما حدث فى الرأسمالية ، بل جاءت هذه المساواة مكملة لها ، وضرورة من ضروراتها ، لا بحكم القانون الوضعى ، ولكن بحكم (الوازع الداخلى) ، و(الضمير) المسلم ، الذى يحرص الإسلام على خلقه حرصاً ، وبدونه لا يكون المسلم مسلما .

كذلك لم تؤد هذه المساواة فى الإسلام ، إلى طمس معالم شخصية الفرد ، كما حدث فى الاشتراكية ، بل إنها أدت إلى إبراز هذه المعالم ، لأنها ليست — فى الإسلام — مساواة (حسابية) بين الناس ، وإنما هى مساواة (جدلية) بينهم ، بمعنى أنها مساواة فى إطار الفروق الفردية ، وتنمية هذه الفروق ، واعتبارها كلها خيرا محضا .

ومن ثم نجد الإسلام يعترف لذوى الفضل بفضلهم ، رغم هذه المساواة . . كما نجده — كنظام — يقوم على (احترام) الصغار للكبار ، والمحكومين للحكام ، والمرءوسين للرؤساء . . ولا يرى ذلك ضد المساواة على الإطلاق[١] ، بل يراه هو الذى يحول هذه المساواة إلى مساواة بشرية ، يقدر كل إنسان فيها ويحترم ، بمقدار ما قدم — ويقدم — من جهد ، وما يتحمل من مسئولية .

وكان (الضمير) المسلم ، هو (القوة المحركة) الأساسية ، التى وقفت — وتقف — دوما ، دون أن (تنحرف) المساواة فى الإسلام عن القصد ، فتؤدى إلى (تجرؤ) الصغير على الكبير ، أو إلى سماح المسلم لنفسه بأن

---

(١) لنا إلى هذا الموضوع برمته عود ، عند حديثنا عن (الحكم فى الإسلام) ، فى كتاب نخصصه له من كتب السلسلة ، وربما كان الكتاب التاسع أو العاشر منها بإذن الله .

(يذوب) فى المجموع ، أو ما إلى ذلك ، مما انحرفت — أو انجرفت — إليه المساواة فى النظم الأخرى .

ويرى الفيلسوف الانجليزى، برتراند رسل، أن «للدين ناحيته الشخصية، وناحيته الاجتماعية ، وهو عند البروتستانت شخصى ، قبل كل شىء ، وعند الكاثوليك اجتماعى ، قبل كل شىء . والدين لا يصبح قوة رهيبة فى تكييف المجتمع ، إلا عندما تندمج ناحيتاه هاتان ، اندماجا خالصاً »(١) .

وقد اندمجت هاتان الناحيتان ، اندماجاً خالصا فى الإسلام ، كما سبق، وزاد الإسلام عليهما اندماجا فى الكون الواسع العريض ، ومن ثم كان ذلك التكامل فى الشخصية الإسلامية ، والتكامل فى الحضارة الإسلامية ، بشكل لافت للنظر ، لعلماء الأنثروبولوجى ، المهتمين بدراسة الإنسان ، وللعلماء المهتمين بدراسة الحضارات ، على حد سواء .

ولو كان أى دين — أو نظام — غير الإسلام ، ومر تابعوه بما مر به المسلمون، لصار هذا الدين تاريخا ، يدل على ما كان، ولا يمكن أن يدل — بحال — على ما هو كائن . . حى .

---

(١) برتراند رسل : نحو عالم أفضل — ترجمة ومراجعة دريني خشبة ، وعبد الكريم أحمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية للطبع والنشر ، ص١٦٦، ١٥٧.

الفصل الرابع

وقضايا أخرى

تقـــديم :

ركزنا فى حديثنا فيما سبق من الكتاب ، على قضيتى (الحرية) و(المساواة) ، ولن نستطيع أن نسير بنفس القدر من الإفاضة والإسهاب ، فى بقية القضايا ، وهى كثيرة كثيرة .

وكان تركيزنا على القضيتين على هذا النحو ، مقصودا . . وذلك حتى نلم (بالأسلوب) الذى يعالج به الإسلام قضاياه ، و(الأسلوب) التى تعالج به الأيديولوجيات المعاصرة قضاياها ، وهما أسلوبان على طرفى نقيض ، ويجب أن يكونا على طرفى نقيض .

والأسلوبان على طرفى نقيض ، لأن الأسلوب الإسلامى فى المعالجة أسلوب شمولى ، يقوم على أساس النظر إلى القضية ــ أية قضية ــ من مختلف جوانبها ، التى لا يستطيع حصرها جميعاً ، سوى الله سبحانه ، خالق الكون كله ، وواهب الحياة ، ومدبر أمر الأحياء ، أما أسلوب الأيديولوجيات المعاصرة فى المعالجة ، فهو أسلوب محدود الأفق ، لا ينظر إلى قضاياه إلا فى حدود إطارى الزمان والمكان . ومن ثم اختلفت هذه الأيديولوجيات فيما ذهبت إليه ، اختلافات ، تصل إلى حد التناقض ، كما رأينا فى أكثر من مكان من هذا الكتاب ، وفى أكثر من كتاب من كتب السلسلة ، بين الرأسمالية ، والاشتراكية أو الشيوعية ، على سبيل المثال .

ويجب أن يكون الأسلوبان على طرفى نقيض ، لأنها نتيجة مترتبة

على مقدمتها . . . ولا يمكن أن نفصل النتائج عن مقدماتها ، إلا وبعدت بنا عن القصد .

فالمعالجة الشمولية ، التى يقدمها لنا من خلق سبحانه ، ومن يعلم كل شيء عن خلقه .. لابد أن تكون هى الصحيحة ، ولابد أن تكون على النقيض من تلك المعالجة التى يقدمها لنا من يدعى العلم . . . ولكن علمه لابد ان يكون محدوداً . . على الأقل إذا قورن بعلم الله ، الذى لا تحده حدود ، من الزمان أو المكان .

وهذا (الدجل) ، الذى اعتمدت عليه النظم غير الإسلامية ، فى معالجة قضاياها ، لا يقف عند حد (الحرية) و (المساواة) . . وإنما يتعداهما إلى مختلف القضايا . . على نحو ما سنرى .

قضية الاخاء :

ولقد كان الإخاء — كشعار — ثانى ثالوث الشعارات ، التى رفعتها الثورة الفرنسية ، كما سبق (الحرية — الإخاء — المساواة) .

والإخاء — كشعار — مرادف للمساواة ، وبالتالى فهو تكرار له ، وليس إضافة إليه .

وأرى أن هذا التكرار ، مرجعه حرص الثوار الفرنسيين ، على أن يأتوا بشعار مثلث ، على الطريقة المسيحية فى رفع الشعارات ، رغم أن الثورة الفرنسية ذاتها ، اتجهت فيما اتجهت ، إلى الكنيسة الكاثوليكية ، بوصفها دعامة من دعامات الفساد ، التى قامت الثورة الفرنسية لتقويضها ، ولكنها فشلت فى هذا التقويض .

وكانت النتيجة أن انشطرت فرنسا إلى شطرين ، شطر كاثوليكى تقليدى ، وشطر ثورى ، والحرب بين الشطرين مستمرة .

وإذا كانت (المساواة) كشعار ، قد داستها أقدام (الحرية) ، فى الغرب الرأسمالى ، وما أدت إليه هذه الحرية ، من إطلاق للطاقات ، ومن منافسة ، أدت — فيما أدت إليه — إلى سيادة القوى ، وتحطيم الضعيف ، وإلى تقسيم المجتمعات الغربية — الرأسمالية — إلى أقوياء ، قادرين على الحياة ، وضعفاء غير قادرين عليها(١) . . فإن الحديث عن الإخاء هنا يغدو حديثا مضحكا .

ذلك أن الإخاء يكون إخاء لما يؤدى إلى القوة ، لا إخاء باسم الوطنية أو القومية ، أو حتى باسم الدم أو الرحم .

ومن ثم طغت المادية على الحياة فى الغرب الرأسمالى ، وصار كل شىء يقوم بقيمته المادية وحدها ، بغض النظر عن أية قيمة أخرى(٢) .

وانتقلت هذه العدوى القاتلة ، من الأمور التى تقبل هذا التقويم المادى ، إلى الأمور التى لا تقبله بطبيعتها — كشئون الروح ، وحياة الأسرة ، والعلاقات بين الناس ، وغيرها .

وقد رأينا فى كتابنا الأول من السلسلة(٣) ، كيف صار التدين ، والإيمان بالله ، والتسليم للقضاء والقدر ، والصلاة ، وغيرها ، مطلبا أساسيا فى نظر الغربيين اليوم ، لا عودة إلى الرشد الذى يجب أن يعودوا إليه ، ولكن شفاء للأمراض ، التى بدأت تغزو جسد الإنسان الغربى ، نتيجة لسيطرة المادية عليه ، وأن « أطباء النفس » — فى نظرهم — « ليسوا إلا وعاظا من نوع جديد ، فهم لا يحضوننا (والمتحدث أمريكى) على الاستمساك بالدين ، توقيا لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وإنما يوصوننا بالدين ، توقيا

---

(١) ارجع إلى ص ٥٢ ، ٥٣ من الكتاب .
(٢) ارجع إلى ص ٨٠ ، ٨١ من الكتاب .
(٣) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ وما بعدها .

الجحيم ، المنصوص فى هذه الحياة الدنيا ، جحيم قرحات المعدة، والانهيار العصبى ، والجنون »(١) .

كذلك رأينا فى هذا الكتاب الأول ، نظرة هؤلاء الغربيين، إلى العلاقات الاجتماعية ، التى يجب أن تقوم بين الناس ، لا حبا فى الناس ، ولكن لما تؤدى إليه هذه العلاقات الطيبة ، من فوائد مادية(٢) .

ولم يكن غريبا ، أن تتسم الفلسفات السائدة فى الغرب الرأسمالى ، بهذه السمة (النفعية) — أو المادية .

والفلسفة، هى باختصار ، «نظام فكري ، نشأ فى بيئة اجتماعية معينة »(٣)، ومن ثم كانت « هناك علاقة وثيقة ، بين الفلسفة التى يعتنقها الفرد ، وبين نظرته الحياة »(٤) ، التى استمدها من خلال معايشته لمجتمع معين ، فقد « جرت سنة الفلسفة من قديم الزمان ، على أن تكون وظيفتها التعبير عن الدوافع والاهتمامات الرئيسية ، السائدة فى أحد العصور التاريخية . ولقد تأثرت فى ذلك ، بالمستوى العلمى السائد ، الذى حدد مضمونها النظرى الرئيسى ، كما استجابت أيضاً ، للتأثيرات الاجتماعية والسياسية والدينية »(٥) . « وجميع الفلاسفة ، عندما قاموا بوضع فلسفاتهم ، كانوا متجاوبين ولا شك ، مع

---

(١) ديل كارنيجى : دع القلق ، وابدأ الحياة — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الخامسة — مؤسسة الخانجى بمصر ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس ؟— تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الثانية — مؤسسة الخانجى بمصر ، ص ٢٠ — ٢٧٦ .

(٣) الدكتور محمد لبيب النجيحى : فى الفكر التربوى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٠ ، ص ٩٨ .

(٤) صالح عبد العزيز (مرجع سابق) ، ص ١٩ .

(٥) مارفين فاربر : «علم الظواهر » — فلسفة القرن العشرين — مجموعة مقالات، فى المذاهب الفلسفية المعاصرة ، نشرها : داجوبرت د. رونز — ترجمة عثمان نويه — راجعه الدكتور زكى نجيب محمود — رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٣ ، ص ١١٨ .

العناصر الثقافية المختلفة فى مجتمعاتهم » . « وسواء أكانت نتيجة هذا التفكير الفلسفى ، دفاعا عن الثقافة ، أو هجوما عليها ، أو توفيقا بين مصالح متعددة ، فإنه فى النهاية تعبير بشكل ما ، عما يسرد هذه الثقافة ، وصدى لما يعتمل فيها ، من أنواع الصراعات المختلفة »(١) .

ويلخص الدكتور سعيد اسماعيل ، الفلسفات المعاصرة ، فى فلسفتين اثنتين كبيرتين ، أولاهما هى الفلسفة الليبرالية ، المنتشرة اليوم فى العالم الغربى الرأسمالى ، والثانية هى الفلسفة المادية الجدلية ، أو الماركسية ، المنتشرة اليوم فى العالم الشيوعى ، بعد أن « ظهرت بوادر اليأس ، من نجاح الديمقراطية فى صورتها القديمة » (٢) .

والفلسفة الليبرالية ، السائدة فى الغرب ، هى الفلسفة الأم ، لمجموع الفلسفات الصغرى ، التى نبتت عنها ، و(تشكلت) لتلائم هذه المجتمعات الغربية . . فكانت الفلسفة التجريبية هى السائدة فى انجلترا ، والفلسفة المثالية هى السائدة فى ألمانيا ، والفلسفة البراجماسية هى السائدة فى الولايات المتحدة ، وغيرها من الفلسفات ، كالفلسفة الواقعية ، والفلسفة الطبيعية ، وغيرهما .

وتقود المجتمعات الغربية الرأسمالية اليوم ، كما نعلم ، الولايات المتحدة ، ومن ثم كانت فلسفتها (تجسيدا) للفلسفات السائدة فى الغرب الرأسمالى ، أو هى (محصلة) لهذه الفلسفات بعبارة أصح ، وهى تقف « موقفا وسطا ، بين المذهب التجريبى ، والمذهب العقلى »(٣) .

---

(١) الدكتور محمد لبيب النجيحى : مقدمة فى فلسفة التربية — الطبعة الثانية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٧ ، ص ١٣ .

(٢) دكتور سعيد اسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية — دار الثقافة للطباعة والنشر — ١٩٧٤ ، ٩ .

(٣) محمود زيدان : وليم جيمس — رقم (١٠) من (نوابغ الفكر الغربى) — دار المعارف بمصر — ١٩٥٨ ، ص ٤٥ .

وهذه (الوسطية) البراجماسية ، بين شتى الفلسفات الغربية ، أمر طبيعى ، إذا تذكرنا ، أن سكان أمريكا الحاليين ، هم أبناء المهاجرين الأوائل ، إلى القارة الأمريكية ، بعد اكتشافها ، وأن هؤلاء المهاجرين كانوا من كل أنحاء أوربا ، وأنهم انتقلوا إلى (الأرض الجديدة) ، بفلسفاتهم أيضاً ، وفى (الأرض الجديدة) ، صهرت هذه الفلسفات معاً ، وتبلورت ، لتكون المحصلة ، هى هذه (الفلسفة البراجماسية) .

وتقوم الحياة — فى ظل الفلسفة البراجماسية — على أساس «(الذرائعية)» أى القول بأن قيمة الفكرة ، هى فى صلاحيتها ، لأن تكون ذريعة للعمل »[١] ، بحيث « لا تصبح الأفكار تأملات ، وإنما موجهة نحو منفعة محددة ، سواء فى بناء العلم والمعرفة النظرية ، أو فى تلبية رغبات الإنسان ، وتحقيق أهدافه »[٢] .

أى أن (المصلحة) هى المحرك للحياة فى أمريكا ، وبالتالى للحياة فى الغرب ، وذلك واضح تماما فى علاقات دول الغرب مع الدول الأخرى ، وواضح بشكل أوضح ، فى العلاقات بينها وبين إسرائيل من جانب ، وبينها وبين العالم العربى من جانب آخر .

وفى ظل (المصلحة) ، يكون الحديث عن (الإخاء) ، حديثا يدعو إلى السخرية والتهكم ، لأن (الإخاء) يقوم على البذل والتضحية . والمصالح دائماً تؤدى إلى (صراع) بين أصحاب هذه المصالح ، ولذلك يرى الشهيد سيد قطب ، أن « مبدأ (الإخاء) ، لم يكن له يوماً مدلول حقيقى ، فى العالم الغربى ،

---

(١) جون ديوى ، وإيفلين ديوى : مدارس المستقبل — ترجمة عبد الفتاح المنياوى — مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٩ — من المقدمة (جون ديوى ، حياته ، عمله ، وأثره فى ميدان التربية والتعليم ، بقلم وليام و . بريكمان) .

(٢) محمود زيدان (المرجع الأسبق) ، ص ٢٠١ .

لأنه يحتاج فى تحقيقه ، إلى عنصر آخر غير المادة ، يحتاج إلى روح ، وإلى ضمير » ، « وبذلك فقد ظل مبدأ (الإخاء) ، منذ اليوم الأول ، مسألة نظرية »(١).

يضاف إلى ذلك ، أن هذا الإخاء ، حتى لو تحقق فى الغرب ، وهو لا يتحقق .. فإنه لا يمكن أن يتحقق بين الغربيين وبين غيرهم ، لأن الحضارة الغربية ، تقوم على (ازدواج الضمير) ، على حد تعبير محمد جلال كشك ، وهذا الازدواج فى الضمير ، قائم — فى رأيه — على « إيمان حتى النخاع ، بأن الناس ليسوا سواسية .. وأن ضربة السوط فوق ظهر الأبيض تؤلم ، ولكنها على ظهر الآخرين تهذيب »(٢).

وقد جربنا نحن ، فى العالمين العربى والإسلامى ، هذا الازدواج فى الضمير ، أكثر من قرن من الزمان ، على يد انجلترا وفرنسا بصفة خاصة ، وها نحن نجربه اليوم ، على يد زعيمة العالم الحر ، فى إسرائيل ، وفى لبنان ، وفى الفيلبين ، وفى غيرها وغيرها .

أما فى ظل (الماركسية) ، فإنه لامكان للإخاء ، على الإطلاق ، رغم أن الشعار (الإخاء) مرفوع هناك ، بشكل أوضح مما هو موجود فى الغرب الرأسمالى ، فالأخوة بين الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، فى شتى أنحاء العالم ، دعامة أساسية من الدعامات التى تقوم عليها الماركسية ، كما سبق عند حديثنا عن (المساواة)(٣).

---

(١) سيد قطب : نحو مجتمع اسلامى — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م ، ص ١٩ — ٢١ .

(٢) محمد جلال كشك : الغزو الفكرى — من سلسلة (مفاهيم إسلامية) — الطبعة الثانية — الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة — مارس ١٩٦٦ ، ص ٢٨ .

(٣) ارجع الى ص ٨٣ وما بعدها من الكتاب .

ذلك أن الولاء فى ظل الماركسية ، للدولة بصفة أساسية ، وما دام الولاء للدولة ، فإنه يعنى أنه للطغمة الحاكمة .. الموجودة فى موسكو — أو بيكين — بصفة خاصة .. وأى ولاء لغيرها ، يتعارض مع الماركسية .

ومن ثم تغدو العلاقة بين الناس — فى الماركسية — علاقة تسلط، لا علاقة إخاء ، لأن الإخاء يقوم على الحب ، لا على التسلط . وعلى مستوى القاعدة المطحونة ، نجد الكل يتجسس على الكل ، والتجسس يعنى الخوف والترقب وانعدام الثقة .. ولا إخاء إلا فى جو من الطمأنينة والحب.. والإخلاص .

ويقودنا هـــذا الإخاء المفترى عليه ، فى الغرب الرأسمالى ، بسبب (المصلحة) التى تشوهه ، وفى الشرق الشيوعى ، بسبب (التجسس والتوجس) ، اللذين يحطامه ، إلى الإخاء فى الإسلام ، لنرى : إلى أى مدى تبدو إشراقة صورته ، إشراقتها فى مختلف جوانب الحياة الإسلامية .

ولم يصل الإخاء فى الإسلام إلى هذه الإشراقة من تلقاء نفسه ، وإنما هو وصل إليها ، لأنه قام على الأسس ، التى لا يقوم إخاء بدونها ، ولأنه تجرد من معاول الهدم ، التى تسلطت عليه فى النظم المعاصرة ، سواء فى الغرب والشرق على السواء ، فقوضته من أساسه .

إنه إخاء لا يقوم على (المصلحة) ، كما يقوم عليها فى الغرب ، بل هو على العكس ، يقوم على التضحية والبذل والعطاء . وقد تصل هذه التضحية ، إلى حد التضحية بالنفس ، فى سبيل آخر أو آخرين :

— « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(١) .

---

(١) قرآن كريم : الحشر — ٥٩ : ٩ :

وليس هناك خير من التاريخ الإسلامى ، شاهداً على تحول هذا الكلام، إلى (واقع) عاشه المسلمون بالفعل ، سواء فى أيام الإسلام الأولى ،وطوال التاريخ الإسلامى ، وسواء اليوم ، رغم المحاولات المستميتة المكثفة، لإبعاد المسلمين عن الإسلام ، فى داخل بلاد الإسلام ، وخارج هذه البلاد .

كذلك لا يقوم هذا الإخاء فى الإسلام على التسلط ، ولا على التجسس.

ذلك أنه لا تسلط فى الحكم فى الإسلام ، لأن الحاكم المسلم واحد من الناس ، ولكنه (أكثرهم حملا) ، على حد تعبير عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وهذا الحاكم عرضة للمساءلة ، من أى إنسان ، وكم كان عمر بن الخطاب سعيداً ، عندما خطأته امرأة ، فقال قولته المشهورة : (أصابت امرأة وأخطأ عمر) ، وعندما وجد فى المسلمين من لو وجد فيه اعوجاجا ، لقومه بسيفه .

والتجسس حليف التسلط ، لأن المتسلط لابد له من جواسيس ، يأتونه بأخبار الناس ، قبل أن يطيح هؤلاء الناس به (١) .

ومن ثم فلا تجسس فى الإسلام على الإطلاق ، حتى ولو كان هذا التجسس للصالح العام . وقصة عمر بن الخطاب مع شاربى الخمر، الذين تجسس عليهم هنا معروفة(١).

ولم يكن ممكنا ، أن يقوم هذا الإخاء الإسلامى ، على هذه الأرض الصلبة ، مالم يكن قائماً على أساس متين ، وهذا الأساس المتين ، هو أنه (إخاء لله ، وفى الله) .

وقد تتحقق — من وراء هذا الإخاء الإسلامى — مصلحة دنيوية ، ولكنها تأتى فى الطريق ، ولا ضير — هنا — إن أتت من وراء إخاء فى الله . . فوائد دنيوية، طالما ظل الهدف واضحا،والسبل إلى تحقيقه واضحة..

---

(١) ارجع الى تفصيلات هذه القصة — مثلا — فى :

— سيد قطب : السلام العالمى والاسلام — الطبعة السادسة — دار الشروق — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

فإذا تحولت الفوائد الدنيوية إلى هدف ، كانت هنا الطامة الكبرى ..
وليس فى الإخاء الإسلامى مكان لهذه الطامة الكبرى .

قضية الاشتراكية :

ولفظ الاشتراكية ، من أكثر الألفاظ المعاصرة لولبية والتواء ، فهو لفظ مطاط ، بحيث يحتمل الشىء ونقيضه .

والاشتراكية Socialism ، غير الشيوعية Communism ، وهى (أى الاشتراكية) — فى نظر الماركسية — مرحلة من مراحل التطور الحتمى — أو البهيمى — للمجتمعات ، من البدائية ، أحط صور الحياة الاجتماعية ، إلى الشيوعية ، أرقى هذه الصور ، فى نظر الشيوعيين .

والشيوعيون المعاصرون ، يعتبرون أنفسهم اشتراكيين ، وأنهم فى طريق التطور بمجتمعاتهم الاشتراكية ، إلى المرحلة التالية والنهائية ، وهى مرحلة الشيوعية ، التى تنعدم فيها الملكية الفردية تماماً ، ويعمل الجميع ، ويجنى الجميع الثمرة ، على أساس (من كل حسب طاقته ، إلى كل حسب حاجته) .

ورغم ذلك ، فقد أدى (تفتت) المعسكر الشيوعى ، بين الاتحاد السوفيتى ، والصين ، ويوغوسلافيا(١) .. إلى افتضاح المعسكر كله ، بعد أن صار كل جناح فيه ، يدعى أنه هو وحده الجناح الاشتراكى ، ويتهم الجناح — أو الجناحين الآخرين — بالارتداد عن الماركسية ، وبالسير فى طريق البورجوازية ، وبالامبريالية ، وبالرجعية .. وبغيرها من الألفاظ ، التى

---

(١) نذكر هنا — مجرد تذكير — بأن التجربة الاشتراكية المصرية ، لم تكن اشتراكية عربية أو إسلامية ، أو غيرها من الصفات ، التى أطلقها عليها سدنة الناصرية ... وإنما كانت نقلا للتجربة اليوغوسلافية — التيتوية فى الاشتراكية ، بخيرها وشرها ، إن كان فى الاشتراكية خير .

تحتل الجزء الأكبر من قاموس الاشتراكية المعاصرة ، والاشتراكيين — أو الشيوعيين — المعاصرين .

والاشتراكية ، كما يدل على ذلك أصلها الإنجليزى Socialism— مشتقة من المجتمع Society ، وبالتالى فهى تدل على المجتمع ، ككيان أكبر ، تذوب فيه الكيانات الفردية ، أو تضيع وتمحى .

والمجتمع لا يحكم بطبيعة الحال ، لأن المجتمع اسم لا يدل على شىء ، وإنما يحكم — نيابة عنه — فئة ، استطاعت أن تصل إلى السلطة ، من خلال التآمر عادة ، كما رأينا عند حديثنا عن قضية الحرية فى الفصل الثانى(١) ، وقضية المساواة فى الفصل الثالث(٢) . ويدعى كتاب الاشتراكية وكهنتها ، أن الاشتراكية ضرورية ، لتذويب الفوارق بين الطبقات .

ولكن تذويب الفوارق بين الطبقات ، ليس سبيله مصادرة كل الثروات ، ثم توزيعها بعد ذلك على القريبين من النظام ، وخدام المعبد وكهنته .

ولقد ذوبت المجتمعات الغربية الرأسمالية هذه الفوارق بالطبع ، من خلال مشروعات الضمان الجماعى ، والتأمينات الاجتماعية وغيرها ، كما ذوبتها انجلترا — مثلا — من خلال الضريبة التصاعدية ، حتى صار الفرق بين أعلى الدخول وأقلها فى هذه المجتمعات الغربية الرأسمالية ، أقل بكثير من الفرق بين أعلى الدخول وأقلها فى المجتمعات الاشتراكية .

ويلفت النظر فى أثرياء الاشتراكية ، أنهم جميعاً من المقربين من النظام ، ومن خدمه وسدنته ورهبانه . . لا من العاملين ، الذين يعرقون بالفعل ، فى المصنع والحقل . . بل إننا نجد كثيراً من الأثرياء الرأسماليين ، بدءوا حياتهم

(١) ارجع إلى ص ٥٨ — ٦٠ من الكتاب .
(٢) ارجع إلى ص ٨٦ — ٨٨ من الكتاب .

عمالا أو فلاحين.. ومن خلال العمل والعرق والجهد.. كونوا ما كونوه من ثروات .

أى أن تذويب الفوارق ، لايعدو أن يكون خدعة من الخدع الكثيرة التى يضحك بها الاشتراكيون الثوار ، على ذقون الكادحين المضيعين .

كما يدعى كتاب الاشتراكية وكهنتها ، أن الهدف من تزويد الدولة بكل وسائل القوة على هذا النحو ، هو تمكينها من حشد الطاقات ، لتحقيق التقدم .

ولكن تحقيق التقدم ، ليس رهنا بسلطات تعطى للطبقة الحاكمة ، وإنما هو رهن بما يطلق عليه مؤرخو الحضارات ، اسم (الإرادة الحضارية)(١) — نفس الإرادة التى دفعت باليابان إلى التقدم ، بأسلوب رأسمالى، وبالصين إلى التقدم، بأسلوب شيوعى ، وبالولايات المتحدة إلى التقدم قبلهما ، بلا أسلوب حياة محدد ، فقد كانت (الأرض الجديدة)، لا تزال تبحث لنفسها عن أسلوب حياة ، يرتضيه أبناؤها — وبانجلترا — قبل الولايات المتحدة — إلى التقدم ، فى عصر قلاقل واضطرابات ، صحبت الإصلاح الدينى فى الغرب ، جعل كل شىء يهتز ويتخلخل ، لا فى انجلترا وحدها ، بل وفى كل بلد أوربى .

بل على العكس ، أستطيع أن أدعى، بأن فرص التقدم تتاح، فى ظل دولة لا يحس بسلطانها أحد ، أكثر مما تتاح فى ظل دولة، ذات قبضة حديدية .

ذلك أن الدول ذات القبضة الحديدية ، تقتل (الإرادة الحضارية) فى النفوس ، وتقتل (المبادرة)، التى يمكن أن تؤدى بالناس — فعلا — إلى التقدم.

---

(١) مالك بن نبى : المسلم فى عالم الاقتصاد — دار الشروق — ١٩٧٢، ص ٨٤ .

ويدعى كتاب الاشتراكية وكهنتها ، أنه بتزويد الدولة بكل وسائل القوة على هذا النحو ، تستطيع الدولة التخطيط ، بما يعنى ترشيد حشد الطاقات واستغلالها .

ولكن التخطيط ليس أمراً قاصراً على الاشتراكيات ، بل هو موجود فى الرأسماليات أيضاً ، ولقد تعلمت الاشتراكيات المعاصرة فن الإدارة وأساليب التخطيط ، من الرأسماليات ، ولم تبتدعه هى ابتداعا .

بل إن الإنسان يستطيع أن يدعى ، أن التخطيط موجود منذ وجد الإنسان ، وكون أسرة ، فكل أسرة تخطط ، على نحو ما ، موازنة بين مواردها المتاحة ، وأوجه إنفاقها ، عاملة حساب الزمن بطبيعة الحال .

والتخطيط على مستوى الدولة ، عرفته مصر القديمة مثلا ، فى سنوات القحط التى مرت بها ، والتى كان حلم يوسف المشهور ، منقذها منه .

وتدعى الاشتراكيات وتدعى . . وكذب كل ما تدعيه .

وهو كذب مقصود ، لتمكين القلة من السيطرة على الموارد ، لتمارس — من خلال هذه السيطرة — التحكم فى المصائر ، وكسر شوكة الخصوم ، (ليخضع) الجميع لتلك القلة . . فتسير العجلة ، على نحو ما يشتهون ويحبون .

وعندما ظهرت الاشتراكية فى مصر فى الستينات(١) ، راح بعض علماء الدين ، يبحثون فى الإسلام عن هذه الاشتراكية ، ويرون الإسلام اشتراكيا ،

---

(١) لم يكن ما ظهر فى مصر عبد الناصر من اشتراكية ، اشتراكية بالمعنى العلمى ، وإنما كان لونا من ألوان (احتكار الدولة) ، سبق إليه تيتو فى يوغوسلافيا ، وسبقهما إليه محمد على فى مصر ، قبل عبد الناصر وتيتو معا ، بقرن ونصف قرن من الزمان . . ولكن (احتكار الدولة) فى عهد محمد على ، كان له ما يبرره . . بينما لم يكن له ما يبرره فى عهد عبد الناصر ، سوى السيطرة والتحكم ، وإرضاء لحقد أسود ، خيم على قلب عبد الناصر .

إما بحسن نية ، ليثبتوا (تقدمية) الإسلام ، وإما بسوء نية ، ليسترضوا فرعون مصر .

وقد وقع هؤلاء وهؤلاء فى الخطأ ، وأساءوا إلى الإسلام ، من حيث لم يحتسبوا ، ومن ثم تصدى غيرهم للرد عليهم ، وللقول بأن الإسلام ليس رأسماليا ، وليس اشتراكيا ، وليس شيوعيا ، وإنما الإسلام إسلام وكفى .

فنى الإسلام ، نرى (قوة الدولة) على أتم وجه ، إلا أن هذه القوة لم تأت من خلال التآمر ، وإحكام القبضة على الرعية ، وإنما هى أتت من خلال حسن تمثيل الدولة لمواطنيها ، وتعبيرها عنهم ، ومن خلال سهر الدولة على تطبيق الإسلام ، الذى يعيش حيا فى ضمير كل مسلم(١) .

وفى الإسلام ، نرى التخطيط للتقدم ، ولكنه تخطيط لا تنفرد به قلة ، وصلت إلى السلطة بطرق غير مشروعة ، بل هو تخطيط يشارك فيه الجميع — فالتخطيط من الوظائف الأساسية الملقاة على الدولة الإسلامية ، سواء لتأمين البلاد فى حاضرها ، أو لتأمينها فى مستقبلها .

ولم تكن حروب أبى بكر ضد المرتدين ، إلا تخطيطا لمواجهة الحاضر ، وكذلك مقابلة عمر لعام الرمادة ومخاطره . كما لم تكن حروب عمر ضد الروم والفرس ، إلا تخطيطا لمواجهة المستقبل واحتمالاته .

أى أن الإسلام عرف ما فى الاشتراكية من جوانب مشرقة ، ومع ذلك فنحن لا يمكن أن نسميه اشتراكيا ، وإنما نسميه إسلاما وكفى ، لأن منظوره إلى هذه القضايا كلها ، كان منظوراً إسلامياً ، على النقيض من المنظور الذى نظرت به الاشتراكية إليها — منظور التآمر ، والانقضاض على السلطة ،

---

(١) لنا عود تفصيلى إلى هذا الموضوع ، فى الكتاب الذى سنخصصه للحديث عن الحكم الإسلامى ، من كتب السلسلة ، بإذن الله .

وإحكام القبضة على الناس . . ثم رفع (الشعارات) بعد ذلك ، لتحويل الباطل الذى تمارسه . . إلى حق .

قضية الديموقراطيــة :

وقضية الديموقراطية ، تعتبر من أكثر القضايا على الإطلاق ، ورودا ، على لسان الرأسماليين والشيوعيين معا . فالرأسماليون يعتبرونها ملكا خاصا بهم ، على أساس أن الفلسفة التى يسيرون عليها ، هى الفلسفة الليبرالية ، القائمة على حرية الفرد — أساس الديموقراطية .

ثم يأتى الشيوعيون ، فيصفون الديموقراطية الغربية بالزيف والضلال والخداع ، لأن (لقمة العيش) ، الموضوعة فى يد البورجوازيين الرأسماليين، تسلب العمال الكادحين، كل ما تعطيهم إياه، هذه .. الديموقراطية.

وليس الخطأ خطأ الرأسمالية أو الشيوعية، وإنما الخطأ خطأ الديموقراطية ذاتها ، أو لعل الرأسمالية والشيوعية معا ، وجدا فى الديموقراطية مقتلها ، فقتلاها منه .

ومقتل الديموقراطية ، فى أنها — كمبدأ — مرنة مطاطة ، بحيث تجمع بين المتناقضات ، فالتعريف الأكثر شيوعا لها ، على حد تعبير تروى ، هو أنها أسلوب الحكم ، الذى يقوم على احترام الفرد، والمساواة بين المواطنين، وإعطاء أكبر قدر ممكن من الحرية ، بما لا يتنافى مع الصالح العام ، والتعاون فى سبيل رفاهية الجماعة(١) .

وبين حرية الفرد ، ومصلحة الجماعة ، نجد مقتل الديموقراطية ، لأن

---

(1) TROY, ORGAN : "The Philosophical Bases of Integration". THE INTEGRATION OF EDUCATIONAL EXPERIENCES, The Fifty - seventh Yearbook of the National Society for the Study of Education; Chicago, Illinois, 1958, p. 40.

حرية الفرد(١) ومصلحة الجماعة(٢) ، لا يمكن أن تجتمعا ، ومن ثم يجمع هذا التعريف الشائع للديموقراطية ، على حد تعبير هانز ، بين المتناقضات ، فهو يجمع بين الديموقراطية الغربية ، القائمة على حرية الفرد، وعلى احترام هذه الحرية ، وبين الديموقراطية الشرقية ، القائمة على مصلحة الجماعة ، أو على الديموقراطية الجماعية ، المبنية على الاقتصاد الاشتراكى ، وعلى احتكار الدولة(٣) .

ولذلك يرى هانز ، أن كلا التفسيرين ، الغربى والشرقى ، للديموقراطية، خطأ ، لأن الديموقراطية — فى نظره — يجب أن تبدأ من الحرية الفردية، أو من مصلحة الجماعة ، على أن تنتقل إلى الجانب الآخر منها ، لأن كلا منهما لو طبق وحده ، لا يفى بالغرض(٤) .

ومن ثم يكون التشدق بالديموقراطية . . فى الغرب أو فى الشرق ، تطاولا على الديموقراطية ذاتها ، لأن فى المبدأ الديموقراطى ذاته عوامل فنائه .

وينظر ألكسيس كاريل إلى القضية من منظور آخر ، هو منظور (الحضارة الحديثة) ، بغض النظر عن الفلسفة السياسية ، أو النظام الاقتصادى ، فيرى أن الحضارة الحديثة، حضارة ضد الإنسان — الفرد ، حيث «يتجاهل المجتمع العصرى الفرد، فهو لا يحسب حسابا إلا لبنى الإنسان فقط .. إنه يؤمن بحقيقة الكونيات ، ويعامل الناس كخلاصات . ولقد أدى اضطراب الآراء، فيما

---

(١) ارجع إلى ما قلناه عن حرية الفرد ، فى مطلع الفصل الثانى من الكتاب ، وعما إذا كان الإنسان بالفعل حرا ، أو يمكن أن يكون حرا — وذلك ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) ارجع إلى ما قلناه عن سلطان الجماعة على الفرد ، والقضايا الجدلية حوله ، فى الفصل الأول من الكتاب أيضاً — وذلك ص ٣٦ وما بعدها .

(3) HANS, NICHOLAS; Op. Cit., p. 235.

(4) Ibid , p. 237.

يتعلق بالفرد، وبنى الإنسان ، إلى وقوع المدنية الصناعية ، فى غلطة جوهرية ، وهى معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة . . . فلو أننا كنا جميعاً متساوين ، لأمكن أن نربى ونعيش ونعمل فى قطعان كبيرة ، أشبه بقطعان الأغنام . بيد أن لكل منا شخصيته الخاصة . ولا يمكن أن يعامل كرمز . ومن ثم يجب ألا يوضع الأطفال، فى سن مبكرة جداً ، فى مدارس ، يعلمون فيها بالجملة » .

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة ، باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة ، استبدالا تاما »(١) .

« وهناك غلطة أخرى ، تعزى إلى اضطراب الآراء، فيما يتعلق بالإنسان الفرد ، وتلك هى المساواة الديموقراطية »(٢) .

« إن مذهب الديموقراطية ، لا يحفل بتكوين أجسامنا وشعورنا .. إنه لا يصلح للتطبيق على المادة الصلبة ، وهى الفرد . . صحيح أن الأفراد متساوون، ولكن الأفراد ليسوا متساوين، فتساوى حقوقهم من الأوهام . ومن ثم يجب ألا يتساوى ضعيف العقل، مع الرجل العبقرى، أمام القانون»(٣).

وهكذا يكون (التمسح) فى الديموقراطيه ، واعتبار هذه الديموقراطية شرفا ، يجب السعى إليه . . خطأ جسيما .

وتكون محاولات بعض المفكرين المسلمين ، (التمسح) فى الديموقراطية، لإظهار فضل الإسلام ، خطأ أكبر ، يساء به إلى الإسلام ، ولا يدافع به عنه .

فحرية الفرد أصيلة فى الإسلام ، وبدون هذه الحرية، حتى مع الكافرين،

---

(١) ألكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ٣٠٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

لا يمكن أن يفهم الإسلام ، ولا أن تفهم نظرته إلى الإنسان — أيا كان هذا الإنسان :

— « قل: يأيها الكافرون. لا أعبد ماتعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولى دين »(١).

— « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس، حتى يكونوا مؤمنين ؟ »(٢).

وعلى قدر هذه (الإرادة الحرة) ، يكون حساب الإنسان يوم الحساب، فلا يحاسب على خطئه ، الطفل ، ولا المجنون ، ولا المكره . . لأن كلا منهم . . مسلوب هذه الإرادة الحرة .

ومصلحة الجماعة أصيلة أيضاً فى الإسلام ، فكما أن الفرد فى الإسلام « مسئول عن الجماعة ، يعمل ويوجه وينقد ويصحح ، منفردا ، وضمن فئة ممن يدركون ويستطيعون ، وعليه أن يستنفد فى ذلك كله أقصى قدرته » ، فإن « الجماعة مسئولة عن أعضائها وعملها ، على أن لا تطغى على ذات الفرد، وتسلبه حريته وحقوقه ، بدعوى حمايته أو الوصاية عليه . كما أن الفرد مسئول عن ذاته ، على أن لا ينسى الجماعة ، فى غمرة حرصه ، واستمساكه بحقوقه ، ومصالحه القريبة »(٣) .

وعوامل الفناء ، الموجودة فى الديموقراطية الحديثة، فى الشرق والغرب معاً . . لا وجود لها فى التطبيق الإسلامى ، لأن حرية الفرد تغدو - فيه - مسئولية

---

(١) قرآن كريم : الكافرون — ١٠٩ : ١ — ٦ .

(٢) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٩٩ .

(٣) الدكتور سيد أحمد عثمان : « المسئولية الاجتماعية فى الإسلام — دراسة نفسية » — الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس — بأقلام نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس — عالم الكتب — ١٩٧٣ ، ص ٧ .

من مسئوليات الأمة ، كما تغدو مصلحة الجماعة جزءا من ضمير الإنسان الفرد . . وذلك من خلال اجتماع « الضمير الأخلاقى » لدى الإنسان ، « والسلطة الشرعية » لدى الدولة ، وانصهارهما معاً ، فى « إرادة عليا ، تملى على وجه الاستعلاء أوامرها ، مستقلة عن كل ما يقتضيه العقل ، والشعور الإنسانى ، وهى إرادة يجب على الإنسان أن يطيعها ، دون مناقشة أو فهم »(١) .

وهكذا ، لا يكون للمسلم أن (يتمسح) فى الديموقراطية ، لأنه ليس فى الديموقراطية ما يشرفه ، فيتمسح به ، وإنما يشرف الديموقراطية ذاتها أن (تتمسح) فى الإسلام ، لعلها تستطيع أن تقترب منه . . ولو مجرد اقتراب ، وما أحسبها بقادرة على هذا الاقتراب ، بسبب ما فيها من أوجه نقص . . قاتلة .

قضية العـــدالة :

وليست قضية العدالة ، بمعزل عن القضايا السابقة ، بل إنها فى صميمها . ذلك أن مسألة العدالة ، تتصل بالإنسان (المواطن) وحقوقه ، كما تتصل بالمجتمع وسيادته — وبالدولة ، وما يناط بها من أعباء ، وما تعطى من صلاحيات . . وتلك هى (المحاور) ، التى دارت حولها مناقشة القضايا السابقة .

ومن ثم (فالعدالة) ، هى الميزان الدقيق ، الذى يقيس (نبض) الأمة ، ومدى انحراف الحق فيها ، إلى هذا الجانب أو ذاك .

وأستطيع أن أدعى ، أن العدالة - كالحرية والاشتراكية والديموقراطية

---

(١) دكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن — تعريب وتحقيق وتعليق : دكتور عبد الصبور شاهين — مراجعة دكتور السيد محمد بدوى — مؤسسة الرسالة ، ودار البحوث العلمية — ١٩٧٤ ، ص ٦٧٦ ، ٦٧٧ .

— فى الغرب والشرق معاً — اليوم . . وهم خادع ، لا وجود لها إلا فى بطون الكتب . . وأنها لم تستطع — حتى الآن — أن تشق طريقها ، من هذه البطون ، إلى دهاليز الحياة اليومية ودروبها .

ذلك أن العدالة مسألة نسبية ، كما أنها مسألة اجتماعية . فما يعد عدلا فى ظروف معينة ، قد يكون ظلما فى ظروف أخرى ، وما يعد عدلا فى مجتمع معين ، يمكن اعتباره ظلما فى مجتمع آخر ، وما يعد عدلا بالنسبة لإنسان ، يمكن اعتباره ظلما بالنسبة لإنسان آخر .

فقضية العدالة ، هى قضية الضمير — الفردى والاجتماعى — قبل أن تكون قضية الشرائع والقوانين الوضعية . . مكتوبة أو متعارفا عليها . . وتطبيقات هذه الشرائع والقوانين .

والعدالة فى الغرب، تقوم على توفير الحرية للفرد ، وتوفير كافة الضمانات لهذه الحرية . . ومع ذلك، فإن الإنسان يستطيع أن يدعى، بأن العدالة، هناك، هى هى العدالة فى غابة من الغابات ، لا فى مجتمع إنسانى .

وفى هـــذه الغابة الغربية ، لا يطبق القانون إلا على (الضعفاء) و (المستضعفين) ، ولا يستفيد بالعدالة ، إلا القادرون عليها ، لا أصحاب الحقوق فعلا .

ففى مجتمع يقوم على المنافسة ، نجد (القادرين) يستطيعون — منذ البداية — وضع القوانين ، أو التأثير فى واضعيها . . بحيث تضمن مصالحهم ، ولو على حساب مصالح الآخرين .

ولولا النقابات فى الغرب ، وما تمثله من (قوة) (قادرة) فى الغرب ، لديس تحت الأقدام ، معظم أبناء المجتمعات الغربية ، من الطبقة العاملة .

ورغم ذلك ، فإن القادرين من أبناء المجتمعات الغربية . . قادرون أيضاً على الإفلات من (قبضة) القانون ، وإخضاع العدالة لمصالحهم .

والقدرة هنا متنوعة متعددة ، فالقادرون على التخطيط للجريمة منذ البداية . . قادرون أيضاً على الإفلات من قبضة الشرطة ، وبالتالى الإفلات من يد القانون ، والقادرون على شراء الذمم والضمائر ، قادرون على الإفلات من يده أيضاً ، والذين يفشلون فى المرحلتين السابقتين من هؤلاء القادرين ، قادرون على اللجوء إلى أكفأ المحامين ، الذين يحولون الباطل حقاً ، والحق باطلا . . فيفلتون فى النهاية .

أما العدالة فى الشرق الشيوعى ، فهى ماتراه الطبقة الحاكمة . . والقانون من صنعها ، إن وضع لهذه البلاد قانون ، وتطبيق القانون فى يدها — إن طبق فى هذه البلاد قانون .

ولم يكن غريباً ، أن يعلن لينين ، أول توليه السلطة فى الاتحاد السوفيتى — كما سبق فى الفصل الثانى(١) — ديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) — أى ديكتاتورية (الثوريين) ، الذى وصلوا به إلى السلطة ، ومكنوه منها ، ويساعدونه على استمراره فيها — وأن يكون مفهوم الديكتاتورية عنده ، كمفهومها عند أى ديكتاتور ، هو أنها هى « (السلطة اللانهائية ، التى تستند على القوة ، لا على القانون) » ، وأن يعلن « فى أبريل ١٩١٨ ، بأنه (لا يوجد تعارض ما ، بين المبادئ الديمقراطية السوفيتية ، ومبدأ السلطات الديكتاتورية ، التى يتولاها بعض الأفراد) »(٢) .

وربما عاد هذا الخلط ، إلى أن للشيوعيين (لغتهم الخاصة) ، على حد

---

(١) ارجع إلى ص ٥٨ ، ٦٠ من الكتاب .

(١) دكتور وهيب سمعان : دراسات فى التربية المقارنة (مرجع سابق) ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

تعبير هيوسيتون واطسون،حيث نجد « (التسلم) » ، « معناه حالة من حالات الاستقرار ، هى الخضوع لموسكو ، و (الديموقراطية) هى أى نوع من أنواع الحكم ، يكون فيه للحزب الشيوعى ، المعترف به من موسكو ، السلطان الأسمى ، أما (الاستعماريون) ، فهم كافة الدول ، التى تقاوم بوسائل سلبية ، أو عدوانية ، مسعى الشيوعيين للاستيلاء على التسلطة»(١) .

ور ا عاد ، إلى الحرص على الاستقرار ، الذى لا تقدم يمكن أن يتحقق فى أى نظام بدونه ، وقد عبر لينين عن هذه الحقيقة بإيجاز ، حين قال : « إن وجود الجيش الثورى ضرورى ، لابد منه ، لأن القرارات التاريخية العظيمة ، لا يمكن اتخاذها إلا فى ظل القوة »(٢) .

وأياً كان السبب فإن « المفهوم السوفيتى للديمقراطية ، يختلف بعض الاختلاف ، عن مفاهيمها الأخرى ، ويزعم لنفسه أنه أوسع مدى ، وأبعد غورا ، من كل مفاهيمها الأخرى ، على الصعيد النظرى أو التطبيقى »(٣) . وفى ظل هذا المفهوم ، لا وجود للعدالة ، بالمفهوم الواسع لها ، وإنما العدالة ـ كالسلطة ، وكالنشاط الاقتصادى ، وكلقمة العيش — حق الطبقة الحاكمة ، والقريبة من السلطة ـ ولا حق فيها للجماهير العريضة ، إلا إذا كانت قريبة من قريب من السلطة ، أو بإرادة قريب منها .

---

(١) هيوسيتون واطسون : ثورة العصر ، بحث فى فلسفة السياسة والاجتماع — الكتاب الأول من سلسلة (كتب الناقوس) — ترجمة محمد رفعت — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٤ — من الهامش .

(٢) جورج كاونتس : التعليم فى الاتحاد السوفيتى — ترجمة محمد بدران — مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣٥٥ .

(٣) جون سومرفيل : « المادية الجدلية » — فلسفة القرن العشرين — مجموعة مقالات ، فى المذاهب الفلسفية المعاصرة ، نشرها : داجوبرت ده رونز — ترجمه عثمان نويه — راجعه الدكتور زكى نجيب محمود — رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٣ ، ص ٢٧٦ .

ويلخص المرحوم عباس العقاد، هذه (المأساة) الشيوعية، فى عبارة موجزة، حين يقول: إن الماركسيين، «يتصورون أن تفاوت الحظوظ والأرزاق، حيلة من حيل الأسواق، وشرك من أشراك المرابين، وطلاب الأرواح... ويزعمون أن الناس قد تفاوتوا فى الحظوظ الأولى والأرزاق، لأنهم قد انقسموا منذ بداية التاريخ، إلى مستغلين ومسخرين»(١).

ثم يرى أن الماركسيين فى الاتحاد السوفيتى، قد «بدءوا التجربة، فلم يتقدموا فيها خطواتهم الأولى، حتى تبين لهم الخطر، من التسوية بين المطبوع على العمل، والمطبوع على الكسل، واحتاجوا إلى حفز الهمم، وحث الخطا، بالتمييز بين المجتهد والمهمل، وبين السريع والبطىء. وبين من يركن إلى الكفاف، ومن يطمح إلى التفوق والبروز».

«وهذا كله، ما استفادته الأمة الروسية، من هذه التجربة الدامية، التى كلفتها نيفا وعشرين مليونا من النفوس البشرية، بين قتلى الثورة، وفرائس الاضطهاد، وصرعى المجاعة والوباء، وخسارة الأمة فى الحرية، واستقلال الفكر والشعور...».

«وكثيراً ما تسمع من دعاة (المادية) كلاما عن الظلم الاجتماعى، والعدالة الاجتماعية.. لأنهم يزعمون أنهم يحاربون الظلم، ويقررون العدالة، ولكنك لن تتخيل فى الدنيا ظلما أوبل، من ظلم التسوية، بين غير المتساوين...»(٢).

ويمكن أن نضيف إلى قول العقاد، أن الماركسيين قد حلوا المشكلة بالفعل، ولكن بتقريب صنائعهم.. والإغداق عليهم، وقصر الحق والعدل عليهم،

---

(١) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية (مرجع سابق)، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠، ٤١.

وحرمان غير الصنائع .. ممن لايؤمنون إلا بالعرق وحده ، من هذا الحق ، وذاك العدل .

ولقد كان للإسلام رأيه المغاير ، للرأسمالية والشيوعية معاً ، فى هذه القضية ، شأنه فى كل قضية سبقتها ، وذلك لأن له رأيه المغاير لهما ، فى الأساس الذى تقوم عليه هذه القضية ، وغيرها من القضايا .. وهو النظرة إلى الإنسان ، والكون ، والمجتمع ، وارتباط ذلك كله بالله سبحانه ، على نحو من الأنحاء .

وقضية العدالة فى الإسلام ، قضية لاتتصل بقوانين توضع ، ولا بمجتمع يشرع هذه القوانين ، ويسهر على تنفيذها .. وإنما هى تتصل (بحق) يجب أن يصان ، و(بإنسان) يجب أن يكرم ، و(بمجتمع) يجب أن تحفظ حقوقه ، ليرعى — بعدها — حق هذا الإنسان . ثم هى — أولا وأخيراً — مسألة تتصل بصراع بين الحق والباطل ، يعيش الإنسان — والمجتمع — فى خضمه ، أرادوا ذلك ، أم لم يريدوه .

ومن ثم كان لابد أن يكون هناك تشريع واحد ، يحكم ذلك كله ، هو تشريع الواحد القهار ، مالك الملك ، سبحانه(١) ، وذلك لأن « الأخلاق الوضعية — خاصة أو عامة — لا تصلح سببا للتقنين . . هى مرفوضة ، مالم تطابق الأخلاق العليا ، التى تأتت بسبب قوة أعلى من قوة الإرادة البشرية (أى الإرادة الوضعية) ، وهى قوة إرادة الله فى زعمنا .. »(٢) .

---

(١) لنا عود تفصيلى إلى هذا الموضوع ، فى كتابنا الذى سنخصصه للحكم فى الإسلام ، من كتب هذه السلسلة ، بإذن الله .

(٢) د. مصطفى كمال وصفى : « الفكرة الأخلاقية ، بين القانون ، والشريعة الإسلامية » — المسلم المعاصر — مجلة فصلية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الإسلامية — العدد العاشر — ابريل — مايو — يونيو ١٩٧٧ ، ص ١٣٠ .

وبالإضافة إلى ذلك ، لابد أن يعتمد ذلك التشريع اللازم ، على قوة (الضمير) ، قبل أن يعتمد على ما فيه من قوة ردع ، تأتى من خارج هذا الضمير ، وهو ما يعتمد عليه التشريع الإسلامى ، فى إحقاق العدل ، حيث « تمتاز الشريعة الإسلامية عن القانون الوضعى ، بأنها مزجت بين الدين والدنيا ، وشرعت للدنيا والآخرة ، وهذا هو السبب الوحيد ، الذى يحمل المسلمين على طاعتها ، فى السر والعلن ، والسراء والضراء » ، « بعكس الحال فى القوانين الوضعية ، فإنها ليس فى نفوس من تطبق عليهم ، ما يحملهم على طاعتها ، وهم لا يطيعونها ، إلا بقدر مايخشون من الوقوع تحت طائلتها »(١).

ومن ثم تتحقق العدالة فى ظل الإسلام ، بشكل مثالى ، نستطيع أن نراه ، فى تلك المرأة التى عرضت نفسها على الرسول عليه الصلاة والسلام عدة مرات ، تطلب منه أن يرجمها ، لأنها زنت .. وفى تلك (المحاكمة)، التى يقوم بها واحد من عامة المسلمين .. لعمر بن الخطاب ، فى ثوب طويل يرتديه .. وفى غيرها وغيرها .

فلا وضع لقانون لمصلحة فئة .. ولا تحايل على هذا القانون .. ولا تسخير له لخدمة طغمة حاكمة ، ولا تفسير له حسب الهوى والمزاج .. فمن أين تأتى العقبة ، لتعترض طريق العدالة ، فى ظل هذا القانون السماوى .. المحكم ؟

وغيرها :

ولم يقف سيل القضايا ولن يقف ، فمع تزايد الصراع بين طلاب الدنيا ، على مشتهياتها ، ومع زيادة تحول المجتمع الدولى إلى غابة ، يكون المكان فيها (للوحوش) الضارية وحدها ، ولا مكان فيها (للحيوانات المسالمة)

---

(١) الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام بين جهل أبنائه ، وعجز علمائه — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م ، ص ١١ .

الوديعة ، الباحثة عن السلام ، والداعية إليه ، والمنادية به ، ومع ازدياد تأثير ونفوذ وسائل (النباح) الجماهيرية .. يطلع كل يوم نباح جديد،بشعار جديد، وقضية جديدة .

فيوما نسمع عن (الحقوق المشروعة) ، ويوما عن (السلام العالمى) ، ويوما عن (الأسلحة الرادعة) ، ويوماعن(القومية)،ويوما عن(الإنسانية)، ويوما عن (الأممية) ، ويوما عن (الدولية) ، ويوما .. ويوما . .

ولو بحثنا وراء هذه القضايا الجديدة ، لوجدنا خلفياتها لا تختلف ، فى قليل أو كثير ، عن خلفيات القضايا القديمة . . فدوافعها هى الدوافع . . وأبطالها هم الأبطال . . وضحاياها هم الضحايا أيضاً .

ونخرج من ذلك كله بدرس واحد .. أكدناه فى كتب السلسلة السابقة، وأحسب أننا سنؤكده فى كتب السلسلة التالية ، وهو أن يد الإنسان هى يد الإنسان ، ستظل تحطم وتدمر . . مالم يتصل هـذا الإنسان ، بمن يبدد له ظلمات حياته سبحانه .. فيحول هذا الاتصال ، هذه اليد ، من يد تدمر ، إلى يد تبنى ، ومن يد تخرب ، إلى يد تعمر .. وبدون هذا الاتصال . . سيدمر الإنسان نفسه فى النهاية ، بعد أن خرب أعماقه.. بنزع فكرة (الله) منها .. فتركت فراغا . . كان لابد أن يملأه شيطان ، هو الذى يدفع هذه اليد . . إلى التدمير .

الفصل الخامس

ما بين السماء والأرض

تقديم :

رأينا فى كل كتاب سبق من كتب السلسلة ، أن الإسلام منذ ظهوره ، وهو يتعرض للحرب الضارية ، التى لم تخمد نارها ، منذ الساعات الأولى للدعوة ، وحتى اليوم — على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان .

وفى كل كتاب من كتب هذه السلسلة ، كنا نرى للحرب سبباً ومنطقاً ، مختلفين — فى قليل أو كثير — عن السبب والمنطق ، اللذين رأيناهما للحرب ، فى الكتب الأخرى من كتب السلسلة ، حسب الموضوع ، الذى كان كتاب السلسلة يدور حوله .

ويمكن أن نجمع هـــذه الأسباب جميعاً تحت عنوان واحد ، هو (الإفلاس) .

ذلك أن إفلاس النظام . . يعنى أنه على وشك الانهيار ، ومعنى انهياره ، انهيار نظام اجتماعى قائم ، وتهديد مصالح مكتسبة ، تقوم عليه .

ورغبة النظم فى المحافظة على نفسها ، لا تقل عن رغبة الأفراد فى المحافظة على أنفسهم . . ومن ثم يكون (الإفلاس) نفسه ، هو المنطق الذى تدور حوله الحرب ، ومن أجله تشتعل نارها .

وفى هذا الكتاب ، ركزنا على بعض القضايا ، التى صارت تفعل فعل السحر ، فى العقل المعاصر ، فيرى — بسببها الحق باطلا ، والباطل حقاً .

وهى تفعل فعل السحر ، فى هذا العقل المعاصر ، لأنه عقل مشحون بالمشاكل — مشاكل الحياة اليومية — بحيث صار غير راغب فى التفكير ، وغير قادر عليه . . وفى مقابل ذلك ، يرى أمامه (حلولا جاهزة) . . فتساعده هذه الحلول الجاهزة ، على أن يزداد تكاسلا . . وتكون الفرصة سانحة (لتجار السياسة) ومحترفيها . . للمزيد من القضايا ، والمزيد من التفسيرات . .

وكل ما فعلناه فى هذا الكتاب ، أننا وقفنا وقفة مجرد وقفة — قصيرة ، نسترد فيها الأنفاس ، ونعود بهذا العقل إلى وظيفته الطبيعية ، التى خلق ليقوم بها ، وهى وظيفة التفكير ، بدلا من مجرد الاكتفاء بالتلقى . . وترك التفكير لأجهزة متخصصة ، مأجورة ، وعميلة لقوى كبرى . . تتحكم اليوم — من خلال هذا العقل الذى تفكر به — فى العالم كله ، الذى طحنته الظروف ، فصار يميل إلى البلادة العقلية ، بعد أن أسلم قياده الفكرى إلى تلك الأجهزة ، تصب فى عقله ما تشاء ، من خلال العديد من الأجهزة .

محاولات قديمة :

ومحاولات (التشويش) على عقل الإنسان ، بغية السيطرة عليه ، وتوجيه الإنسان — من خلاله ، أو ما يسمى فى العصر الحديث (غسيل المخ) . . محاولات قديمة ، وليست محاولات ، نتجت عن التقدم التكنولوجى والحضارى المعاصر .

ولم تكن سيطرة الملوك والأباطرة فى العصور القديمة ، على شعوبهم ، والوصول بهم إلى درجة (التأليه) ، كما حدث فى مصر والهند والصين واليابان . . عملا يتم عشوائياً ، ودون إعداد مسبق ، وإنما كان عملا ، تجند له أجهزة ، وتتم من أجله دراسات ، ويسهر على تنفيذه خدام للنظام ، لايقلون فى كفاءتهم بحال من الأحوال ، عن كفاءة الخدام الحاليين ، لأى نظام معاصر .

ولم تكن سيطرة الكهنة ورجال الدين على شعوبهم ، عملا يمكن أن يتم ، بدون هذا التخطيط والتنظيم ، المبنيين على أساس عقلى أيضاً ، ووفق تفكير عقلى عميق كذلك.

بل إن الإنسان يشد انتباهه ، تلك القدرة الفائقة ، التى كانت تتم بها سيطرة النظام القبلى — رغم بدائيته — على أبناء القبيلة.. وتلك (المنزلة) ، التى كان يحتلها شيخ القبيلة ، أو رئيسها ، فى نفوس أبناء القبيلة، وهى منزلة، دونها بكثير ، ما يتمتع به أى رئيس دولة معاصر ، فى نفوس مواطنيه ، سواء كان نظام حكمه ديموقراطيا ، أو استبدادياً.

لقد كان لكل مجتمع من هذه المجتمعات القديمة ، فلسفته وأهدافه ، التى صنعتها (ضغوط) الحياة على أبنائه ، فى بيئة معينة ، زمانية ومكانية ، والتى استطاع أن يبلورها بذكاء.. أحد أبنائه . . كاهنا كان أو فيلسوفا.. أو حاكما.. أو رأياً عاماً ساهم فى بلورتها ، على نحو من الأنحاء.. وكانت القيم الاجتماعية ، يتم انتقالها إلى الصغار ، عن طريق (تشربها) ، « فلم تعرف التربية البدائية شيئاً عن الكتب ، ولا عن المدارس »[1] ، و « ولم تكن للتربية فلسفة مثالية ، وراء الغرض العملى المباشر ، ولكنها كانت تربية عملية ، تعد الطفل للحياة العملية ، فهى إعداد للحياة وحياة معاً ، وهى عملية تتضمن الهدف فى خلالها »[2].

وعندما انتقلت هذه المجتمعات القديمة ، من البدائية إلى الاستقرار ، وعرفت — عن طريق الاستقرار — التنظيمات الاجتماعية المختلفة ، بدأت

---

(1) BUTTS, R. FREEMAN : A Cultural History of Western Education, Its Social and Intellectual Foundations; Second Edition, Mc Graw — Hill Company, New — York, 1955, p. 15.

(٢) صالح عبد العزيز ، وعبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس — الجزء الأول — الطبعة الخامسة — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

الحضارات فى الظهور ، فظهرت الحضارات الهندوكية والصينية والفارسية والفينيقية والمصرية القديمة واليونانية والرومانية وغيرها . ولكل من هذه الحضارات تاريخ شيق ، يدل على مدى ما بلغته شعوبها من الرقى الفكرى والاجتماعى والروحى ، كما تميز كل مجتمع من هذه المجتمعات ، بمثله العليا وتقاليده ونظام حكمه، وطريقة تربيته للنشء ، وإعداده للحياة ، وفقاً للسائد فى المجتمع ، من عقائد وفلسفات ، ووفقاً لحالته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ووفقاً لظروفه الطبيعية ، ولمستواه الثقافى »(١) .

وبفضل هذه المحاولات القديمة ، التى تبدو لنا بدائية ، غير معلومة التفاصيل على وجه التحديد ، تكونت الامبراطوريات القوية ، وتفجرت الحضارات الكبرى . . فى العالم القديم .

وبفضلها أيضاً ، كان ما وصل إليه الملوك والأباطرة والكهنة وحراس النظام ، من منزلة ، فى نفوس الجماهير العريضة ، مما زاد النظام تماسكا ، والأباطرة قوة ، والمجتمعات تقدما وحضارة .

وبسبب ذلك كله ، كان ذلك التصدى الكبير ، الذى تصدته هـــذه المجتمعات القديمة ، للأنبياء والرسل ، بعد أن أفلح (النظام) القائم، فى تحويل المسيرة كلها ، عن طريق الحق . . طريق الله .

ولنقف عند حادثة واحدة ،فى حياة نبى واحد ، تبدو لنا بسيطة محدودة، لنرى مدى عمقها وتأثيرها .والحادثة هى حادثة تحطيم الأصنام ، والنبى هو إبراهيم الخليل ، أبو الأنبياء ، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

ولقد اتجه الخليل إبراهيم ، إلى هذا العمل ، بعد أن أدى ما كان عليه

---

(١) فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر ، ص ز — من المقدمة .

أن يؤديه ، من واجب (الدعوة الفردية) إلى الله ، وكان عليه أن ينتقل من مرحلة (الدعوة الفردية) ، إلى ما يمكن تسميته (بالدعوة الجماعية) ، التي يثير بها (الرأى العام) ، وينبهه ، فيحدث ما يسمى (بلغة العصر) (ثورة ثقافية) فى المجتمع ، ومن ثم يتوجه إلى الأصنام ، التى تجتمع حولها القلوب ، ليبين زيف ما تجتمع عليه تلك القلوب ، وهو واثق ، وهو يتجه وجهته الجديدة ، من أن الخطر الذى يتربص به أشد » .

« ويتجه الخليل إبراهيم إلى تلك الأصنام ، فيحطمها ، ويحدث تلك (الثورة الثقافية) ، فى الرأى العام الغافل ، ويكون ما توقعه من شر داهم ، وخطر جسيم ، ولكنه يقبل عليهما فى ثقة تامة ، ويقين لايتزعزع ، راضى النفس سعيداً »(١) .

لقد كان تحطيم الخليل للأصنام ، تحطيما للدعائم التى يقوم عليها النظام كله ، والتى يقوم عليها نظام الحكم ذاته ، حيث يصل (النمروذ) — الملك — فيه ، إلى درجة التأليه ، ويمارس حكمه المستبد .

لقد كانت (الأصنام)، هى (الجوهر)، الذى يدور حوله النظام، وتدور حوله فلسفته ، ومن ثم كان تحطيمها ، ضربة للنظام ذاته . . فى (مقتل) هذا النظام .

ولو أننا أمسكنا بحياة الأنبياء جميعاً . . وتتبعنا الضربات التى وجهوها إلى النظم التى أرسلوا فيها . . لوجدنا كل ضربة منها ، موجهة إلى (مقتل) ، وإن كان هذا (المقتل) ، يبدو لنا اليوم بسيطا ، إلا أن نظرة فاحصة فيه ، تبين أهميته لهذا النظام .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٤٥ .

ومعنى إتيان الرسل ، فى كل زمان ومكان ، هو أن النظام (الجاهلى) البعيد عن خط الله سبحانه . . قد وصل إلى (كماله) . . ومن ثم كان لابد من تحطيمه .

ولم يصل هذا النظام إلى (كماله) هذا ، إلا بعد محاولات للتشويش على العقل الإنسانى ، والضمير الإنسانى بالتالى . . نجح فيها تماما . . وكان على الأنبياء أن يأتوا . . ليزيلوا آثار هذا التشويش ، حتى يعود لهذا العقل نقاؤه وشفافيته ، وقدرته — بالتالى — على أن يقود المسيرة الإنسانية إلى . . بر الأمان .

بأسلوب جديد :

والفرق بين جاهلية اليوم ، وجاهليات الأمس ، فرق فى الأسلوب وحده ، أما الهدف ، فهو واحد ، وأما الاستراتيجية ، فهى واحدة أيضاً . والفرق فى الأسلوب .. فرق ظاهرى فقط .

كانت الجاهليات القديمة ، تهدف إلى (الأخذ) بالراية الإنسانية كلها ، بشتى السبل ، بعيداً عن طريق الله ، ولا زالت جاهلية اليوم تهدف إلى نفس الهدف .

وكان للجاهليات القديمة (مصلحتها) ، فى هذا الأخذ بالراية ، على هذا النحو ، وتتمثل هذه (المصلحة) ، فى السيطرة على مقدرات الناس ، واستذلالهم .. وللجاهلية الحديثة نفس المصلحة ، بلا زيادة أو نقصان ، كما رأينا فى فصول الكتاب السابقة ، سواء كانت الفئة المسيطرة هنا ، هى فئة من (يملكون) المال ، كما نرى فى المجتمعات الرأسمالية ، أم من (يملكون) السلطان ، كما نرى فى المجتمعات الشيوعية .

واسلوب السيطرة هنا ، هو أسلوب السيطرة هناك .. وإن بدا مختلفا

ذلك أن لكل عصر (ظروف) حياته .. ومن ثم وجب أن يتغير الأسلوب ، بتغير الظروف .

كانت الخرافات والأساطير فى القديم ، أسلوبا مناسبا للسيطرة على الناس ، مع (الجهل) العام بكثير من الأمور المتصلة بالطبيعة من حولنا .. ولكن هذه الخرافات والأساطير ، لم تعد مناسبة ، فى عصر استطاع الإنسان فيه أن يقتحم كل مجهول ، ابتداء من آفاق الذرة ومجاهلها ، وانتهاء بالغوص فى أعماق البحار ، وباطن الأرض ، وآفاق السماء .

فلتحل محل الخرافات والأساطير .. خرافات أخرى ، كخرافة اقتدار العقل الإنسانى .. على أن يقتحم كل مجهول ... مثلا .

فمن خلال الغرور .. بدأ الإنسان يوقع نفسه فى محظورات ، ما كان يتمنى أن يقع فيها .

ومن ثم كان (التجهيل) ، أسلوبا من أساليب الجاهليات القديمة ، للسيطرة على الناس ، فصار (التعليم) أسلوب الجاهليات المعاصرة ، فى السيطرة على هؤلاء الناس . وليس التعليم فى هذه الجاهليات المعاصرة ، مرادفا (للتنوير) ، كما يجب أن يكون ، وإنما هو يعنى (الإخضاع) لما يراد للأجيال الناشئة أن تخضع له ، فتخضع للأسلوب الرأسمالى للحياة .. فى الغرب ، وتخضع للأسلوب الشيوعى للحياة .. فى الشرق ، وتخضع بالتالى لوسائل القوة المشروعة فى الغرب ، كما تخضع — بالتالى أيضاً — لوسائل القوة المشروعة فى الشرق .

وفى الغرب والشرق معاً ، ينشأ الإنسان ، من خلال برامج التعليم ، لا يرى الله ، ولا يعترف به ، ولا يريد أن يراه أو يعترف به ، لأن الحياة تتشكل من حوله ، بحيث تخلق له إلها جديداً ، أو آلهة جدداً ، يتحكمون فى حياته ،

تحكم فرعون مصر ، فى حياة المصريين القدماء ، وتحكم امبراطور الصين فى حياة الصينيين ، وامبراطور اليابان فى حياة اليابانيين .

ومن ثم فهو أسلوب جديد ، ولكنه أسلوب قديم أيضاً .

ورد فعل هذا الأسلوب الجديد / القديم ، رد فعل جديد/قديم أيضاً .

وهو رد فعل قديم ، لأنه يدعو إلى العودة إلى الله ، ويتحمل فى سبيل العودة والدعوة معاً ، ما تحمله الأنبياء والرسل ، وحواريوهم ، من أعباء وتضحيات ، فى سبيلهما .

وهو رد فعل جديد ، لأن الدعاة العائدين . . ليسوا أنبياء ، مرسلين من السماء ، وإنما هم بشر عاديون ، معرضون لأن يخطئوا ويصيبوا ، دون أن تأتيهم من السماء إشارات ، تدلهم على مواطن القوة ومواطن الضعف ، فيما يقولون ويسلكون ، أو تشد أزرهم ، فى مواقفهم التى يقفونها .

ثم إن أسباب عودة هؤلاء الدعاة العائدين . . إلى طريق الحق . . مختلفة ، اختلافاً يصل إلى حد التناقض . فقد تكون عودة نتيجة لعلم زائد ، وقد تكون عودة نتيجة للحرمان من أى علم . وقد تكون عودة نتيجة للضيق والحرمان ، وقد تكون عودة نتيجة لليسر الزائد ، الذى أدى إلى إحساس عميق ، بأن المادة لا قيمة لها على الاطلاق .

ولكنها عودة . . على أى حال .

ولم يكن غريباً ، أن تكون هناك (إقبالة) واسعة على الإسلام ، فى البلاد المتقدمة ، رغم أن الدعوة إلى الإسلام فى هذه البلاد ، لا وجود لها . . لأن المسلمين العاديين هناك ، مشغولون بمشاغل الحياة العادية ، ولأن المسلمين الأغنياء ، وهم عادة من البلاد البترولية ، الذين لا يشغلهم شىء ، سوى شراء

الجزر العائمة ، وقصور ألف ليلة وليلة .. والتنافس على إنفاق الأموال على الراقصات .. والممثلات المشهورات .

وبالتالى فهم حرب على الإسلام ، بتصرفاتهم ومسالكهم ، وهم — ولن — يكونوا يوما ، من الدعاة إليه .

ولم يكن غريباً كذلك ، أن تعود إلى البوذية . . والتاوية . . والكونفوشيوسية ، الحياة من جديد ، بوصف كل منها أسلوبا جديداً فى الحياة ، يميل إلى الروح ، وينقذ من المادة وشرورها ، بشكل من الأشكال .

ولم يكن غريباً أيضاً ، أن تعود إلى التوحيد ، على مذهب إخناتون .. الذى دعا إلى عبادة الشمس . . وأن يأتى إلى مصر كل عام ، آلاف من هؤلاء الموحدين الجدد /القدامى ، يعبدون هذه الشمس..فى معابد الأقصر — معابد الشمس ، التى بناها إخناتون .

ووسط هذا الخضم الهائل .. نجد الدعاة إلى الله ، كما هو مستقر فى ضمير الإنسان ، منذ أقدم عصوره .. غرباء ، حتى فى بلادهم .. ونجد الحرب تشن عليهم ، من الجاهليين الجدد ، فى الغرب الرأسمالى ، وفى الشرق الشيوعى ، كما تشن عليهم من (الموحدين) الجدد . . الذى أرادوا العودة . . فسلكوا طريقا آخر ، ضل بهم عن الله .

ويعلق هؤلاء الدعاة على أعواد المشانق ، ويقذف بهم فى غياهب السجون ، ويشردون ويشرد ذووهم .. تماماً كما تم مع الدعاة القدامى . . عليهم أفضل الصلاة والسلام .

فهى قصة الإنسان ، منذ كان هذا الإنسان ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونفس النتيجة :

وبأيدى الجاهليات القديمة ، كانت تركز كل وسائل القوة ، من مال وسلاح ورجال .. وسلطان ، وكان دعاة التوحيد محرومين من كل أثر من آثار هذه القوة . وكانت وسائل القوة هذه ، فى أيدى هذه الجاهليات القديمة ، هى التى تدفعها دفعاً إلى العناد ، وإلى الوقوف فى وجه دعوة التوحيد ، والتصدى لها :

— « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين »(١) .

ولكن موازين القوة المادية هذه ، لا تقف حائلا دون انتصار الحق ، واندحار الباطل ، لأن هذه الموازين المادية ، تغفل العامل الحاسم فى القضية ، وهو قوة الله سبحانه ، الذى خلق الكون ، وخلق القوانين والنواميس ، التى تحكمه وتسيره . . وبيده — وحده — مقاليد الأمور كلها .

ومن ثم انتصر الحق على الباطل ، فى كل جولة خاضها الطرفان ، رغم أن الواقع المادى الماثل للعين ، كان مع الباطل .. وضد الحق ، وذلك لأن الباطل يحمل — بين طياته — عوامل فنائه ، كما يحمل الحق — بين طياته — عوامل بقائه ونمائه ، ولأن الله سبحانه — لذلك — يقف دوما مع الحق ، وقوفه دوما ضد الباطل :

— « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد »(٢) .

ووقوف الله سبحانه مع الحق ، لا يعنى (انحيازه) سبحانه إليه ، وإنما

---

(١) قرآن كريم : سبأ — ٣٤ : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٥١ .

هو يعنى أن الحق — بطبعه — يسير على الناموس الإلهى . . فالحق هو الذى يسير مع الله ، ومن ثم كان انتصاره ، لسيره على الناموس ، وكان اندحار الباطل ، لسيره ضده .

وعلى الطرف المقابل ، الطرف المؤمن ، نرى المؤمنين ، قليلى العدد ، قليلى العدد والعتاد ، قليلى السلاح ... ولكنهم — رغم ذلك — متفائلون ، واثقون من نصر الله ، حتى يأتى الله بنصر من عنده ، أو يموتوا على طريق الحق ، الذى وهبوا أنفسهم له ، ومن أجله نالوا ما ينالون من أذى وعذاب وهوان :

— « .. قال الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين »(١) .

— « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ، ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم »(٢) .

ذلك أن هؤلاء المؤمنين ، يعلمون جيداً أنهم يسيرون على الدرب ، الذى رسمه الله سبحانه ، وأمر عباده بأن يسيروا عليه ، وأن من سار على الدرب وصل ، بغض النظر عما يبدو ، لقصار النظر ، أول الأمر ، من أنه نصر ، أو مكاسب ، تؤدى بهم إلى النصر . إن هذه المكاسب الظاهرية ، لا تعدو أن تكون (الفتنة) ، التى يميز بها الله الخبيث من الطيب ، والإيمان المدعى من الإيمان الحقيقى :

— « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون ، إن كنتم

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٤٩ .

(٢) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٧٣ ، ١٧٤ .

مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين. ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا ، فلكم أجر عظيم»(١).

ونظرة على الجاهليات المعاصرة ، ترينا أنها هى هى الجاهليات القديمة ، بشحمها ولحمها . فيما عدا القنابل الذرية ، والطائرات المقاتلة ، والغواصات ... والإلكترونات ، وغيرها من (وسائل) الحروب الحديثة ، التى لم يكن لها وجود ، فى الجاهليات القديمة .

ومعنى ذلك ، أن الجاهليات المعاصرة ، صارت أكثر (ضراوة) من الجاهليات القديمة ، بما توفر لديها من أسلحة (متطورة) ، زادت بها قوة .

ولكن نظرة متأنية ، توضح أن الأمر بالنسبة للمؤمنين المحدثين ، ليس أكثر خطورة منه بالنسبة للمؤمنين القدامى ، وأن كفة الجاهليات المعاصرة ، ليست بأرجح من كفة الجاهليات القديمة .

ذلك أن الحضارة الحديثة ، قد وفرت للجاهليات المعاصرة بالفعل ، وسائل القوة ، ووسائل السيطرة على البيئة ، ووسائل الحصول على ثروات ضخمة ، ووسائل تطوير الأسلحة ، إلى أبعد حد مستطاع بالفعل . ولكنها — فى الوقت ذاته — قد جعلت الحياة فيها (جحيما) لا يطاق .. فقد صارت

(١) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٧٥ — ١٧٩ .

الحياة فيها عبئاً على الأحياء.. كما رأينا فى كتابنا الأول من السلسلة(١)، وكما يدل عليه زيادة نسبة الانتحار، فى أكثر بلاد الغرب تقدماً، وزيادة نسبة (الفرار) إلى هذا الغرب، فى البلاد الشيوعية، كلما حانت لذلك فرصة.

ولكن من يفر إلى الغرب من هؤلاء الشيوعيين، ليستجير به من نار الشيوعية، إنما يكون (كالمستجير من الرمضاء بالنار). فنار الشرق هى هى نار الغرب، وإن كان الاختلاف بين النارين، اختلافاً فى (نوعية) النار وحدها، لا فى نفس النار.

ففى الغرب والشرق معاً، نار، تهدد بإحراق من يعيشون هنا وهناك.

والمطامع التى تقوم عليها الحياة فى الشرق والغرب معاً، تحيل بعضهم على بعض، كما تحيل الشرق على الغرب، والغرب على الشرق، بحيث (يتربص) كل منهما بالآخر. وخطأ صغير من هنا أو هناك.. كفيل بأن يحولهما معاً إلى تاريخ مضى، لا إلى واقع — أو حاضر — يعيش.

ومن ثم فالتقدم الذى تعيشه الجاهليات المعاصرة، والقوة التى تتزود بها من خلاله، أمر يفل شوكتها، ولا يجعل هذه الشوكة قوية، كما يبدو.

والعبرة — فقط — (بانتهاز الفرصة)، فى لعبة السياسة الدولية، التى يعيشها عالمنا المعاصر، فى ظل القوتين الكبريين، اللتين تمثلان به، العمودين اللذين تقوم عليهما هذه.. الجاهلية المعاصرة.

وتطلق عوامل الهدم والتدمير، التى تحيط بهذه الجاهلية المعاصرة من الخارج، والتى تنفجر من داخلها أيضاً.. تطلق خيالات المؤرخين، فيرون أن «النزعة الاستعمارية فى الدول الغربية، ستكون مصدر ضعفها

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ص ١٣٧ وما بعدها.

واضمحلالها . لقد كانت هـذه النزعة فيما مضى ، سببا لسيطرتها السياسية والاقتصادية على العالم ، أما وقد تنبه العالم إلى التحرر من هـذه السيطرة ، فإن روح الاستعمار ستكون وبالا على الغرب ، لأن تمسكه بها ، يكبده وسيكبده الخسائر الهائلة فى الأرواح ، وفى اقتصادياته وميزانياته ».

« وفى الغرب مصدر آخر للضعف والتراجع ، وهو أن ما ابتزه الاستعمار ، من خيرات الشعوب الشرقية وأموالها ، قد زاد من ترف الغرب ، وتخطى الترف حدوده المعقولة والمقبولة ، فانتشرت الإباحية » ، « وكثيرا ما تكون هـذه الآفات ، نتيجة للتوسع فى الفتح والسلطان ، وازدياد الثروة الرخاء ».

فالدور الذى تسير فيه الدول الاستعمارية ، يشبه أن يكون كدور التراجع والانحلال ، الذى أصاب الامبراطورية الرومانية ، فى أواخر عهدها »(١) .

وإذا كان كلام المرحوم الرافعى منصبا على الغرب ، فربما عاد ذلك إلى تاريخ كتابته لرأيه هذا ، فى وقت لم يكن المعسكر الشيوعى قد تحول فيه إلى مستعمر هو الآخر ، وبدأ إفلاسه فى هذا المجال يظهر ، بعد أن كان — وقت الكتابة — يبدو نصيرا للشعوب المستضعفة .

ويتم الرافعى تنبؤه — نتيجة لذلك — فيرى أنه قد «سيطر الغرب على الشرق فيما مضى ، من طريق الاستعمار والاستعباد ، والقوة الغشوم ، ولكن تطور الإنسانية وتقدمها ، وتطلعها إلى المثل العليا، قد أيقظ فى الشرق

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، تاريخنا القومى فى سبع سنوات (١٩٥٢ — ١٩٥٩) — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٩ ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

روح الحياة والحرية ، وإباء الذل ، والنفور من العبودية ، ومن ثم أخذ الاستعمار يتراجع ويترنح ، ولم يعد يقوى على استيقاء سيطرته القديمة » .

« أما الشرق ، فإنه بتحرره من العبودية والاستعمار ، قد حطم العقبات والعراقيل ، التى كانت تحول دون تقدمه ، وبتحطيمها ، ينفسح المجال أمامه، لينهض ويقوى ، وينال المكانة الرفيعة التى هو محققها ، وواصل إليها ، بالجد والدأب والمثابرة .

يضاف إلى ذلك ، أن مصادر الثروة الطبيعية ، وفى مقدمتها البترول ، ليست فى الغرب ، بل هى متوافرة أكثر ما يكون فى الشرق الأوسط ، ووجودها فى البلدان الشرقية ، سيجعل لها مع الزمن ، التفوق والمنعة ، ويجعل الغرب عالة على الشرق ، من هذه الناحية »(١) .

ولقد كان الرافعى ، وهو يكتب هذا الكلام ، لا يزال متفائلا بالثورة المصرية ، التى أعادت إلى مصر شبابها سنه ١٩٥٢ ، شأنه فى ذلك شأن ملايين المصريين والعرب ، قبل أن (تنحرف) هذه الثورة عن خطها المرسوم لها ، و(تنحرف) إلى متاهات جانبية ، تحيد بها عن التحدى الحقيقى الذى كان يعترضها — تحدى التقدم ، والبحث لمصر عن شخصيتها الحقيقية — العربية الإسلامية . .

ولكن ما حدث — رغم ذلك — أمر طبيعى فى نظر الدراسين ، فلقد أدى — فى النهاية — إلى عودة مصر إلى أصولها ، بعد رحيل عبد الناصر ، وبعد ما جره على البلاد من ويلات ، وما أجراه فيها من تخريب ، وهو يدل على « يقظة الشعوب التامة ، ووعيها المتزايد ، فى عمليات فكرية ، تقوم على الغربلة ، والتحليل والمقارنة والاستنباط ، طلبا لأمثل النظم ، وأنفع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

المبادئ ، فى تحقيق عمليتى التعويض ، وإدراك ركب التقدم العلمى والصناعى »(١) — ركب القوة ، فى عالمنا المعاصر .

ومن ناحية أخرى ، يرى المرحوم عباس العقاد ، أن « أحلك ساعات الظلام ، هى ساعة الهزيع الأخير من الليل ، قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات .

ويصدق ذلك على أوقات الظلام فى عصور التاريخ ، فإن أظلم أوقاته ، لهو الوقت الذى يسبق فجر اليقظة ، بقليل من السنوات ، ثم تأتى اليقظة فى حينها ، فإذا هى بصيص النور الأول ، قبل تباشير الصباح »(٢) .

ونعود مرة ثانية إلى القرآن الكريم ، لنرى رأيه فى هذه القضية ، القديمة الجديدة :

— « ... أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ، من هو أشد منه قوة ، وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »(٣) .

— « كالذين من قبلكم ، كانوا أشد منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم ، فاستمتعتم بخلاقكم ، كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون . ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم

---

(١) الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع — الطبعة الثانية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٠ ، ص ٢٩ .

(٢) عباس محمود العقاد : محمد عبده — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م ، ص ٥ .

(٣) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٧٨ .

أوليائه بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم »(١) .

فصبر جميل :

ولكن الفجر لا يشرق وحده ، إلا فى النواميس الطبيعية ، أما فى نواميس البشر ، فإنه لا يشرق إلا بحركات هنا ، وحركات هناك ، يتم — بعدها — انفصال خيوط الليل عن خيوط النهار ، فيكون فجر ، ويكون — بعد الفجر — إشراق :

— « قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون »(٢) .

وإذا كانت أمارات التحلل ، قد بدأت تظهر فى جسم الجاهليات المعاصرة ، فى الشرق والغرب على السواء ، فإنه لابد أن تقابلها أمارات بناء ، تظهر فى الجسم الإسلامى . تماما كما شهد تاريخ فجر الإسلام حركة هدم فى الجسد الرومانى / الفارسى ، وحركة بناء فى الجسد الإسلامى ، وكانت نتيجة الحركتين ، زوال حضارة العصور القديمة ، التى كانت تمثلها الحضارتان الفارسية والرومانية ، لتحل محلها حضارة العصور الوسطى .. الإسلامية ، فى ظل الإسلام ، وفى حضانته .

ولقد رأينا — بالفعل — أمارات هـــذا البناء .. رغم محاولات

(١) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ٦٩ — ٧١ .
(٢) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ١٤ — ١٦ .

(الإجهاض) المستمرة للحركة الإسلامية ، على ساحتنا نحن — الإسلامية، تقوم بها حكومات عميلة . . أتت إلى الحكم بتخطيط مخابرات الدول الكبرى ، وتعلم جيداً أن حياتها ، وبقاءها فى الحكم ، متوقفان على عمالتها لهذه المخابرات(١) .

رأينا الإتجاه إلى الإسلام قويا بين الشباب ، والشباب — فى أى بلد — هم مستقبله .

ورأينا الاتجاه إلى الإسلام يقوى — أيضاً — بين الكبار ، بعد أن سئموا (التبعية) و (الذيلية) ، التى أسلمتهم من ذل وهوان ، إلى ذل وهوان ، وعقدت لهم المشكلات ، التى كان مأمولا أن تحلها .

لقد مهدت أرض الإسلام تمهيداً ، للأيديولوجيا الرأسمالية فى بعض البلاد الإسلامية ، ومهدت تلك الأرض تمهيداً للأيديولوجيا الاشتراكية (الشيوعية) فى بعضها الآخر .

وكان العصر الذهبى للأيديولوجيا الرأسمالية فى البلاد الإسلامية ، هو النصف الأول من هذا القرن العشرين . . ولكن رد فعل المسلمين لمحاولة فرض هذه الأيديولوجيات ، كان هو ... العودة إلى الإسلام ، فى إشراقته ووضاءته الأولى . . و(نبذ) الفكر المستورد الدخيل .

ثم كان العصر الذهبى للأيديولوجيا الاشتراكية ، هو الربع الثالث من نفس هذا القرن العشرين . . ولكن رد فعل المسلمين لمحاولة فرض هذه الأيديولوجيا ، كان — ولا يزال — هو ... العودة إلى الإسلام ، فى إشراقته ووضاءته الأولى . . و(نبذ) الفكر المستورد الدخيل .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية (مرجع سابق) ، ص ١١ ، ١٢ — من المقدمة .

وكان أسلوب الرأسمالية الغربية ، فى فرض أيديولوجيتها ، هو أسلوب المراوغة ، ومحاولة الترفع ، والإشارة — فى صلف وكبرياء — إلى ما أنجزه الغرب فى ظل أيديولوجيته ، من حضارة رائعة خلابة ، واستقطاب بعض ضعاف النفوس ، ومرضى القلوب ، ليجعلوا منهم أبطالا أسطوريين ، ومفكرين نادرين.. بلسانهم يتحدثون .

وكان أسلوب الاشتراكية الشيوعية ، فى فرض أيديولوجيتها ، هو أسلوب المراوغة أيضاً ...وشراء الذمم والضمائر ، ورفع الشعارات البراقة الخادعة.. مع استخدام القوة والعنف ، حين تدعو الضرورة إليهما ، ودفع العملاء إلى مراكز السلطة ، (ليفرضوا) على المسلمين ما يشاءون ، ويغيروا (بالقوة) ، ما عجز المكر والدهاء عن تغييره .

وفشل أسلوب المراوغة والدهاء.. كما فشل أسلوب الكبت والضغط والعنف والجبروت .

وكان هذا الأسلوب وذاك ..فى خدمة الإسلام وعقيدته.. لأنه نبه المسلمين إلى الخطر المحدق بهم ، وحقيقة هذا الخطر.. فاندفعوا فى طريق الإسلام ، وعقيدته الخالصة.. من جديد ، من حيث أريد لهم أن يبتعدوا عنهما (١).

ثم رأينا الصوت الإسلامى — من ثم — يرتفع، ويعلو ارتفاعه ، ويعلن عن نفسه ، بعد أن كان من قبل خافتا ضعيفا.. ثم رأينا المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وبمنهج إسلامى للتربية ، وبالعودة إلى التراث ، وغيرها وغيرها ، مطالبة (القاعدة) الشعبية العريضة ، فى كل بلاد الإسلام ، بعد أن كانت هذه المطالبة من قبل ، مطالبة (القلة) من الناس ، الذين شوهت

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

صورتهم أمام هذه (القاعدة) ، فى سنوات القهر والاستبداد ، فاتهمت بالطمع فى السلطة ، وبالعمالة ، وبالتآمر ، وغيرها وغيرها من التهم ، التى كالتها العمالة ،التى تولت الحكم فى هذه البلاد ، ردحا من الزمن .

ولم يكن أحد يحلم بأن يعود للإسلام صوت يرتفع .. فى مصر ، أو فى باكستان ، أو فى الصومال ، أو فى تونس ، أوفى الجزائر .. ولكن الصوت يعود ، أقوى مما كان ، رغم أن الحكم فى كل منها لم يتغير .

وهكذا ، نجد نظرة واحدة على الخريطة الدولية تقنعنا بسرعة ، بأن الربع الثالث من القرن العشرين ، هو عصر الإسلام .. بعد عشرة قرون طويلة ، ورهيبة ، من الحرب ضد الإسلام ، ظاهرة حينا ، ومتخفية أحياناً .

وهو عصر الإسلام ، فى بلاد الجاهليات المعاصرة ، التى خططت — وتخطط — للقضاء عليه .. ، رغم ما وصلت اليه من اقتدار علمى ، وتفوق تكنولوجى .

وهو عصر الإسلام ، فى بلاد الإسلام ، التى خططت هذه الجاهليات — وتخطط — للقضاء عليه فيها ، ليموت فى قلوب أتباعه .. بعد أن فشلت محاولات الانقضاض عليه من الخارج .

وهو عصر الإسلام على الساحة الدولية ، التى تتصارع أطرافها ، ولا تتفق على شىء ، إلا على حرب الإسلام .

وهو عصر الإسلام رغم ذلك كله .. لأن فى الإسلام عوامل بقائه ، فى حالتى الضعف والقوة معاً ، لا فى حالة من هذه الحالات دون حالة .

وما يحدث اليوم على الساحة — المحلية والإسلامية والدولية — ليس إلا صورة مكبرة .. لما حدث فى الحديبية .. أو فى غزوة الخندق .. أو فى .. الهجرة .

فالتاريخ يعيد نفسه كما يقولون . . بعد إعادة ترتيب فصوله . . . ليعود الإسلام — كما هو — وكما كان — وكما سيظل — الرباط المقدس ، بين الله فى علاه ، والإنسان على أرضه . . ومثل هذا الرباط لا يمكن أن ينقطع . . وتستمر للإنسان على الأرض . . حياة .

وكل ما يحتاجه الإسلام — والمسلمون — هو مزيد من اليقظة ، ومزيد من الحرص ، ومزيد من التضحية والبذل ، ومزيد من الثقة بنصر الله ، والسير فى طريق هـذا النصر ، الذى سار فيه الإسلام ، فى فجر تاريخه : طريق القوة ، بجوانبها المتعددة ، من سياسة وعلم ، ومن تخطيط وعمل ، ومن تزود بالسلاح وتدرب عليه . . ومن زيادة التمسك بحبل الله — بالقرآن الكريم — على مستوى الأفراد والجماعات .

وما يحتاجه الإسلام — والمسلمون — اليوم — هو هو ما احتاجه الإسلام فى فجر تاريخه . . وبه صار الإسلام قوة عالمية ، معمولا حسابها . . وهو هو ما احتاجته كل رسالة من رسالات السماء سبقته . . وبه دحرت الكفر ، وأقامت مكانها . . راية الإيمان .

والمسلم أن يفخر بكتابه

ولم يكن ما ورد — ويرد — من أحداث ، بين قافلة الإيمان والتوحيد من جانب ، وقافلة الشرك والوثنية من جانب آخر . . غائبا عن ضمير المسلم ووجدانه ، وإنما هو عميق فى هذا الضمير ، لأنه عميق فى القرآن الكريم ، الذى لا يمكن فهم ضمير المسلم . . بدونه .

فبمعزل عن القرآن الكريم ، دستور المسلم ، فردا وجماعة ، لا يمكن أن يكون المسلم مسلما ، ولا أن يكون الضمير الذى تشكل لديه . . ضميرا مسلما .

والقرآن الكريم — كما رأينا فى كتابنا الثالث من كتب السلسلة(١) — ليس مجرد كتاب (دينى) أو (عقائدى) ، بمعنى أنه يدور حول (الحلال والحرام) وحدهما ، مضافا إليهما مجموعة من (الطقوس) يجب أن تؤدى ، وإنما هو كتاب (كونى) ، بمعنى أن له نظرته الخاصة إلى الكون . وفى ضوء هذه النظرة ، تتحدد نظرته إلى الكون كله ، ابتداء من الله سبحانه ، على قمة الهرم الكونى ، وانتهاء بالذرة ، والحيوان وحيد الخلية ، أسفل ذلك الهرم — شاملة العالم الفيزيقى ، الذى نراه ونحسه ، والعالم الميتافيزيقى ، الذى لا نراه ولا نحسه ، وشاملة — كذلك — الماضى ، والحاضر والمستقبل ، والحياة الدنيا ، وما بعد هذه الحياة الدنيا .

وفى ضوء هذه النظرة كذلك ، يتحدد وضع الإنسان — فرداً وجماعة — على خريطة الهرم الكونى .

فالإنسان الذى نراه أمامنا (كيانا) مستقلا متميزا قائماً بذاته . . فردا . .

---

(١) دكتور عبدالغنى عبود : الإسلام والكون (مرجع سابق) ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

لا يتكرر عبر التاريخ الإنسانى كله.. ليس جسما معلقا فى الفضاء، معزولا عن بقية خلق الله، وإنما هو (مندمج) على نحو من الأنحاء، مع بقية عناصر الكون، مكونا مع هذه العناصر، تلك (السيمفونية) الرائعة، التى نسميها (سيمفونية الحياة)، بكل إيقاعاتها، المتميزة، والمنسجمة مع بعضها البعض، والتى ننظر إليها، فلا نملك إلا أن نخر لله ساجدين، لأننا نراه ونرى إبداعه، فى كل إيقاع من إيقاعات هذه (السيمفونية) الرائعة، وفى كل عنصر من عناصر هذا الكون الواسع الفسيح، وفى كل ذرة من ذراته.

ويمكن أن نرى هذا الإيقاع، فى (سيمفونية) واحدة قصيرة، نراها على سبيل المثال، فى سورة البروج (رقم ٨٥ بالمصحف، ومجموع آياتها اثنتان وعشرون)، لنراها تبدأ بماض وحاضر ومستقبل، تجتمع كلها فى (السماء ذات البروج)، التى شهدت خلق الإنسان، ثم تصب كلها فى (اليوم الموعود)، الذى سيكون فيه حساب عسير، ثم ترتد إلى قصة الصراع بين الكفر والإيمان، فى صفحة واحدة ماضية، هى صفحة (أصحاب الأخدود)، وهم ذو نواس، ملك حمير اليهودى، وزبانيته، الذين نكلوا بنصارى نجران، لرفضهم الارتداد عن مسيحيتهم، والعودة إلى اليهودية:

— «والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذى له ملك السموات والأرض، والله على كل شىء شهيد»(١).

ثم تنتقل (السيمفونية) بعد ذلك، من هذا الماضى الذى توقفت عنده، لتلتقط صورة منه، إلى الحاضر الذى يعيشه المؤمنون — المسلمون، رابطة بين هذا الحاضر الإسلامى، والمستقبل، يوم القيامة، تماماً كما ربطت بين

---

(١) قرآن كريم: البروج - ٨٥: ١ — ٩.

هذا الحاضر الإسلامي ، والماضي الإيماني المسيحي ، (فقضية) الإيمان واحدة ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها :

— « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ثم لم يتوبوا ، فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ذلك الفوز الكبير »(١) .

ثم تنتقل (السيمفونية) من هذا الحاضر والمستقبل ، إلى حقيقة كونية رائعة ، تربط بين هذه الأجزاء المتناثرة ، بين ماض وحاضر ومستقبل ، وبين إيمان وكفر ، وبين عمل وحساب — وهي حقيقة الله سبحانه ، خالق هذا الكون الكبير .. ومدبر أمره سبحانه :

— « إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد »(٢) .

ثم ترتد (السيمفونية) ارتدادة سريعة إلى الماضي ، في عبارة موجزة ، لأنه ماض شبيه بالماضي الذي ذكرت تفصيلاته ، في قصة (أصحاب الأخدود) :

— « هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ »(٣) .

ثم تعود بسرعة إلى الحاضر ، وتنتهي بما يجب أن تنتهي به ، في قصة هذا الصراع الطويل بين الإيمان والكفر .. وكيف تجمع الإيمان كله ، في نهاية الرحلة الإنسانية — في الإسلام ، وفي كتابه القرآن الكريم .. الذي

---

(١) قرآن كريم : البروج — ٨٥ : ١٠ ، ١١ .
(٢) قرآن كريم : البروج — ٨٥ : ١٢ — ١٦ .
(٣) قرآن كريم : البروج — ٨٥ : ١٧ ، ١٨ .

صار — وحده — محط الإيمان ، ومحط القلوب المؤمنة ، لأن المؤمن حقاً ، يجب أن يؤمن بكل الرسالات والكتب.. وقد تجمعت كلها — فى النهاية — فى هذا الكتاب :

— « بل الذين كفروا فى تكذيب. والله من ورائهم محيط. بل هو قرآن مجيد. فى لوح محفوظ »(١).

ولو تتبعنا كل سور القرآن الكريم ، لوجدناها ينطبق عليها ما ينطبق على سورة البروج ، من أن كلا منها (سيمفونية) متميزة ، متعددة الإيقاعات ، ولكنها — فى النهاية — معبرة — على نحو من الأنحاء — عن قصة الحياة وفلسفتها وأهدافها.. ووضع الإنسان فى هذه الحياة، وإمكانياته المتاحة له ، وما يفرض أن يقوم به من أعباء ومسئوليات ، تتفق مع هذه الإمكانيات المتاحة.

ومن ثم كان للإسلام — ولكتابه الكريم المحكم — رأيه فى كل قضية عرضت للإنسان فى الماضى ، وتعرض له فى الحاضر ، ويمكن أن تعرض له فى المستقبل ، وكان هذا الرأى هو الرأى الفصل ، الذى يرتقى فوق مستوى الجدل ، لأنه رأى من خلق ، وهو — سبحانه — بخلقه أعلم.

فللمسلم أن يفخر بكتابه ، الذى جمع فوعى ، وعرض فأحاط ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، والذى — رغم تنوع موضوعاته وإلمامه وسعته وشموله .. لم تتناقض جزئية من جزئياته ، مع جزئية أخرى ، وإنما تكاملت الجزئيات كلها ، تكامل ذرات الكون المحيط بنا ، لتصنع لنا — من خلال تنوعها — سيمفونية الحياة الرائعة ، التى تستولى على اللب.

هذا فى الوقت الذى حاول الجاهليون ، عبر التاريخ الإنسانى الطويل،

---

(١) قرآن كريم : البروج — ٨٥ : ١٩ — ٢٢ .

أن يأتوا بجديد ، يتمردون به على ما قال به رب الخلق ، فكان ما أتوا به شاهداً على عجزهم ، فى الوقت الذى كانوا يعتبرون ما أتوا به دليلا على اقتدارهم. ولسنا نقول بهذا الكلام من منطلق حماس دينى ، ندافع به عن القرآن الكريم ، ولا عن الإسلام، ونهاجم به — لذلك — الفكر الإنسانى، ومنجزات العقل ، وإنما نقول به — كما رأينا فى فصول هذا الكتاب — ترديدا لأقوالهم نفسها ، فالرأسماليون يلعنون نظام العصور الوسطى ، والاشتراكيون يلعنون الاثنين ، والاشتراكيون يلعنون بعضهم بعضاً.. وكل أمة تعلن أختها.. وكل نظرية تقال ، لا تكاد تطبق ، حتى تتعفن ، قبل أن تكتمل وتنضج ، وتنهال عليها الألسنة الحداد تلوكها ، من داخلها ومن خارجها على السواء.

للمسلم أن يفخر بكتابه ، الذى ظل جديداً متجدداً ، معطاء فى كل زمان ومكان ، مغنيا عن غيره ، ولا يغنى عنه غيره.

* * *

واتجهت الحملات الضارية إلى هذا الكتاب الكريم منذ البداية ، وكان منطقيا أن تتجه هذه الحملات إليه ، طالما كان فيه هذا الزاد كله ، وكان هو العماد ، الذى يقوم عليه الإسلام كله.

وبدأت هذه الحملات ، بالإسرائيليات ، التى حاولت أن تمسه ذاته ، بالدس فيه ، ولكن خطى المسلمين ، كانت أسرع من خطاهم ، فأسرع عمر ابن الخطاب (بجمع) القرآن ، من الصدور ، ومن الصحف.. وجندت لذلك أجهزة الدوله كلها.. رغم أن الدولة كانت مشغولة — فى عصره — بتأمين الحدود ، التى أدت ، لا إلى تأمين الحدود فقط ، ولكن إلى توسيع الرقعة أيضاً.

لقد جعل عمر — رضى الله عنه — الأولوية المطلقة لتأمين القلوب ، من خلال جمع القرآن ، وأعطى أولوية ثانية لتأمين الحدود، فأمنت القلوب والحدود معاً ، وكان توسع وامتداد أيضاً .

ولو أعطى عمر الأولوية المطلقة لتأمين الحدود ، وترك جمع القرآن — لكانت الكارثة ، إذ : ما الفائدة التى يمكن أن يجنيها المسلمون من تأمين الحدود ، والقلوب التى تضمها هذه الحدود خاوية ؟

ثم اتجهت هذه الإسرائيليات إلى الحديث الشريف ، فكانت خطى المسلمين أسرع ، ولكن بعد أن تم الدس فعلا . . فقامت حركة (تطهير)، تركت مخلفات لها . . ولكنها فوتت على الدساسين دسهم ، بنسبة كبيرة .

ثم اتجهت هذه الإسرائيليات — بعد ذلك — إلى تفسير القرآن . . وإلى التاريخ الإسلامى . . وإلى . . وإلى . . ولا زالت تتجه .

ولكن هذه الحملات الضارية ، لم تزد المسلمين إلا عوداً إلى القرآن ، وتمسكا بالإسلام ، وإصراراً على العودة إليه ، فى نقائه وصفائه .

وكلما تركزت الحملة ، لإبعاد المسلمين عنه ، كان رد الفعل الإسلامى ، هو مزيد من العودة إليه .

ولما فشلت المحاولات ، كان لابد من تغيير الجاهليين فى وسائلهم ، وصولا إلى الهدف .

وكانت الوسائل الجديدة أخطر من الوسائل القديمة ، رغم أن الوسائل القديمة كان سلاحها هو السيف ، وأن الوسائل الحديثة ، سلاحها الكلمة .

ونجح الجاهليون الجدد فى معركة (الكلمة) هذه ، طوال قرنين من

الزمان تقريباً ، وكان يساعدهم فى هذا النجاح ، ذلك التفوق التكنولوجى الغربى الواضح . . كما كان يساعدهم تخلف المسلمين الواضح أيضاً .

كما ساعدهم فى هذا النجاج كذلك ، أن الكلمة لم تعدمقصورة على المدرسة والكتاب ، وإنما صارت واسعة الانتشار والتأثير فى عالم اليوم ، حتى أنها صارت تقتحم على الإنسان مخدعه ، من خلال صحيفة ، أو جهاز استقبال ، لصوت وصورة ، أو للصوت وحده .

وصارهم كل هذه الأجهزة ، التى يسيطر عليها ماديون ، تربوا فى مدارس الغرب ، ونشأوا على نظام مادى خالص ، هو أن (تغرق) الناس ، فى العالم الإسلامى ، فى (متاهة) ، لا يجدون فيها وقتا للانشغال بالقرآن الكريم .

وغرق المسلمون فى بحر هـذه (الجاهلية) الجديدة . . مخدوعين ، أو مطحونين .. وكادوا يبعدون عن كتابهم ، وكاد دور هذا الكتاب ، أن يقتصر على (المآتم) والمقابر . وكأنه كتاب للأموات ، لا كتاب للأحياء .

وحتى فى هذه المآتم والمقابر . . تتلى آياته ، والناس عنها فى شغل شاغل ، بأعباء الحياة ، أو بمفاتن هذه الحياة .

وكاد هذا المخطط أن يصل إلى كماله ، ويحقق أهدافه . . لولا ما فى هذا الكتاب الكريم ، من (جاذبية) تفوق الوصف .

لقد غرق المسلمون فى بحر هـــذه (الجاهلية) الجديدة ، حتى كادت أرواحهم أن تزهق ، فعادوا إليه مرة ثانية ، كما تشهد الساحة الإسلامية اليوم ، رغم ما يشن من حرب على هؤلاء العائدين ، وملاحقة لخطواتهم ، وعد لأنفاسهم ، وكأن أجهزة المباحث لم تخلق فى أى بلد إسلامى ، إلا لرصد تحركاتهم .

تخطف النساء فى الشوارع ، وتمارس الرذيلة — بشتى صنوفها — علناً .. ويسرق السارقون أقوات الشعب ، وتخرب المصانع ، ويزداد انخفاض مستوى المعيشة ، ويتحول المجتمع إلى غابة ، يأكل قويها ضعيفها .. وأجهزة المباحث فى أى بلد إسلامى لا يعنيها ذلك كله ، إلا إذا كان يمس كبيراً من الكبار .. وإنما يعنيها هؤلاء العائدون وحدهم .

ورغم ذلك ، يزيد رصيد العائدين ، وتعلو الراية ...

ويرتفع الصوت ، مطالبا بالعودة إلى نظام التربية الإسلامى ، بعد أن سئمنا ذلك (القيء) ، الذى يأتينا من الغرب ، بعد أن نشر جرثومته فى المجتمعات الغربية ، وأتى إلينا ، لينشر فينا نفس الجرثومة .. القاتلة(١) .

ويرتفع الصوت كذلك ، بالعودة إلى الفن الإسلامى ، بعد أن نجحت الجاهلية العالمية — من خلال الفن — فى تحطيم المجتمعات الغربية والشرقية معاً .. ثم استوردناه نحن باسم (المدنية) ، لتحطيمنا كذلك .

ويرتفع الصوت ، أيضاً ، بتطهير برامج الإذاعة والصحافة والتليفزيون ، من الجاهليات والجاهليين .

والصوت الذى بدأ ينادى بذلك كله وحيداً .. تتجه إليه كلاب الجاهلية المحلية المذعورة خائفة .. صار اليوم صوتا شعبياً .. لا تستطيع أعتى القوى أن تتصدى له ، لأنه فى علوه ، يخترق حتى الأذن الصم .

ويركب الجاهليون الموجة ، فيكون أمر مضحك .

---

(١) نذكر هنا ، بما قلناه فى تقديمنا للسلسلة ، من أن هذا الكتاب ، وغيره من كتب السلسلة ، ليست إلا محاولات ، على طريق (التربية الإسلامية) لاكتشاف معالمها — ارجع إلى ص ٧ — ١١ من الكتاب .

فالرأسماليون منهم يدرسون القرآن — والإسلام — ليثبتوا أن الإسلام هو أبو الليبرالية ، بنزعته (الفردية) التى ينزعها .

والاشتراكيون منهم يدرسون القرآن — والإسلام — فيبدو لهم أن الإسلام هو أبو الاشتراكية ، بما يحرص عليه من عدالة اجتماعية ، ومساواة وتكافؤ فرص .

ثم يفتضح أمر هؤلاء وهؤلاء .. حين يأخذون أموال المسلمين ، ليدسوا بها للإسلام ، ويحاربوا المسلمين .

وبافتضاح أمرهم ، يزداد الصوت علواً ، وتزداد راية الإسلام ارتفاعاً ، وتزداد قلوب المسلمين حول كتابهم الكريم .. التفافا(١) .

فللمسلم أن يفخر بكتابه ، الذى يرى فيه وضوحا ، وفى وضوحه نوراً ، وفى نوره كفاية ، تقيه شر الوقوع فى المزالق ، التى يخططها الشيطان له ، من خلال من يقعون تحت تأثيره .. من الجاهليين .

ولا تبدو قيمة هذا النور القرآنى فى بهائه وروعته ، كما تبدو ساعة الظلمة الشديدة الحالكة ، حيث يكون التخبط الشديد .. بدونه .

* * *

---

(١) من المضحكات المبكيات أيضا — أن إحدى كبريات بلاد الإسلام ، أرادت ركوب (الموجة) الإسلامية ، فرصدت ملايين الدولارات ، لعدد من (المستشرقين) ، للقيام بدراسات إسلامية ، تنسب إليها ، وتبدو بها — كما تحب أن تدعى وتظهر — حامية حمى الإسلام.

وقد بلغ مجموع مارصد لمثل هذا (التهريج) ، بلايين الدولارات .

هذا ، فى الوقت الذى تبخل فيه هذه الدولة الكريمة — الغنية — بعدد محدود من الآلاف ، على دراسات يقوم بها مسلمون .

أى أنها تأتمن الصليبيين على الإسلام ، وعلى أموال المسلمين — ولا تأتمن أى مسلم على الإسلام ، أو على الأموال .

ومع بداية النهضة الإسلامية الحديثة ، ومع ثانى لقاء تم بين الصليبية الدولية والإسلام(١) .. مع عصر التوسع الاستعمارى الكبير ، فى نهايات القرن الثامن عشر ، وبدايات القرن التاسع عشر ... بدأت الصليبية الدولية ، التى صارت تحمل اليوم علم الجاهليات المعاصرة كلها .. تخطط لإجهاض القرآن الكريم ، من خلال التنفير منه .

وكانت هذه الصليبية ، قد بدأت تمارس دورها بالفعل ، قبل هـــذا التاريخ بقرن من الزمان على الأقل ، منتهزة ضعف الامبراطورية العثمانية — امبراطورية الرجل المريض — من خلال المدارس التبشيرية والأجنبية ، التى فرضتها على الامبراطورية ، وجعلتها أشبه (بدولة داخل الدولة) ، فلما جاء الاستعمار الحديث ، كانت الأرض مهيأة له فكريا .. رغم التصدى له ، ومحاولة مقاومته عسكريا . ذلك أن هذا الاستعمار الحديث ، كان (ثمرة) الحضارة الحديثة ، والمسلمون محتاجون إلى هذه الحضارة الحديثة ، ليتمكنوا — بها — من مقاومة الاستعمار الحديث — ابنها .

وتم لقاء — أو صدام — بين الفكر الجاهلى الوثنى القادم ، تحرسه حراب المستعمر ، وبين الفكر الإسلامى الأصيل ، يحرسه الأزهر ، وغيره من الجامعات الإسلامية الكبرى .

وبفعل الحكام ، الذين حرصوا على كراسى الحكم ، قبل أن يحرصوا على سلامة الأمة فى مستقبلها .. من أمثال محمد على فى مصر ، آثر هؤلاء الحكام السلامة ، والسير فى طريق (التعصير) أو (التحديث) ، بعيداً عن

---

(١) تم أول لقاء بينهما ، فى القرن الحادى عشر ، فيما عرف بسلسلة الحروب الصليبية ، والتى أوضع صلاح الدين الأيوبى — الكردى — بالإسلام — حداً لها .

الإسلام فى الظاهر ، وفى حرب للإسلام فى الواقع(١).

ذلك أن اللطمة التى لطمها محمد على للأزهر ، ظل الأزهر يترنح منها طوال قرن ونصف قرن من الزمان ، حتى جاء جمال عبد الناصر ، فلطمه اللطمة الثانية ، التى كانت قاتلة بالفعل.

لم يحاول محمد على أن يصلح الأزهر ، بحجة تجنب مواجهة بينه وبين علمائه . . مما باعد بين الأزهر — والإسلام — فى ضمير الأمة ، وبين التعليم الحديث — والحضارة بالتالى.

---

(١) كان الهدف الأساسى لمحمد على ، هو تحويل مصر إلى دولة كبرى ، تحمل لواء الحضارة فى الشرق ، وتربط بذلك بين حاضرها المجيد ، الذى يخطط للوصول إليه ، وماضيها الحضارى المشرق . وجند محمد على كل إمكانيات البلاد ، للوصول إلى هذا الهدف ، الذى سيدخله التاريخ من أوسع أبوابه ، وكان مستعدا لعمل أى شىء لتحقيقه ، حتى ولو نحى الإسلام عن الحياة العامة ، وتظاهر — فى الوقت ذاته — بخدمته ، حتى ولو سير الجيش المصرى لضرب الحركة الوهابية ، إرضاء للباب العالى ، وعمل — فى الوقت ذاته — على تحطيم الباب العالى والخلافة معا ، كما ركز — أيضا — على تجنب الصدام مع الدول الكبرى ، ومع الحركة اليهودية العالمية ، رغم أنها لم تكن قوة ذات تأثير ظاهر فى ذلك اليوم — كما هى الآن .

وللمزيد ، عن تجنبه للصدام مع اليهود — ارجع إلى موقفه من قضية قتل اليهود للأب توما ، وخادمه ابراهيم عمار ، فى دمشق سنة ١٨٤٠ ، ليتخذوا من دمهما وسيلة لإتمام طقوسهم الدينية ، فى عيد الفصح ، حيث يجب — فى هذا العيد — عندهم — مزج الفطير بدم بشرى ، غير يهودى . . . ارجع إلى هذه القصة كاملة ، لترى كيف ساعد محمد على فى (تهريب) اليهود المتهمين من السجن ، بعد محاكمتهم وإدانتهم فى :

— عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية ، على الإسلام والمسيحية — الطبعة الثانية — دار العلم — ١٩٦٥ ، ص ٩٧ وما بعدها .

— التلمود ، شريعة بنى إسرائيل (حقائق ووقائع) — ترجمة وإعداد محمد صبرى — مكتبة مدبولى ، ص ٣٧ — ١٢٣ .

وترسب فى الضمير العام،أن الأزهر هو بؤرة التخلف ، وأن التعليم الدينى هو سبب الرجعية ، وأن القرآن الكريم كتاب أعراب، وليس كتابا لمتحضرين.

وزاد الطين بلة، أن الأزهر قد تنحى عن دوره(القيادى) للمسلمين . . وتحول إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة ، يعين رئيسها (شيخ الأزهر) بمرسوم ملكى .. ثم بقرار جمهورى . . وهو شىء لم يكن له وجودفى تاريخ الأزهر الطويل ، ومن ثم بدأ الانهيار السريع له .

ذلك أن الدين يعرف المواقف ، ولا يعرف المناصب .

والمناصب دوما ، تعد (قيودا) على ذويها ، وذلك لأن عليهم أن يسيروا فى (فلك) النظام ، لأنهم يوم يخرجون عن هذا (الفلك) ، يحرمون من المنصب .

وبعيدا عن المناصب .. وقف الأزهر دوما ضد الحكومات والنظم .. الجائرة ، ولولاه ، لفنى المصريون تماما تحت حكم المماليك .. ولكنهم كانوا يجدون فى رحابه ، وفى (قيادة) رجاله .. حصنا ، يقيهم شر بطش المماليك.

بل إن الذى أتى بمحمد على إلى الحكم ، كان هو الأزهر ورجاله ..ومن وراء الأزهر ورجاله ، كان الشعب المصرى كله يتحرك .

ومن هنا ، كان محمد على يعرف خطر الأزهر على حكمه ، فكان ما كان منه نحوه .

ولم يعد الأزهر — فى ضمير المسلمين — مرادفا للتخلف وحده ، بل صار مرادفا للرجعية والتخاذل ، والتكالب على المناصب ، وصار صورة سيئة للدين الإسلامى ذاته .

ولكن ، من صحن الأزهر ذاته ، تخرج شيوخ (ثوار) ، ولا زالوا

يتخرجون(١) .

إلا انهم تخرجوا — ويتخرجون — على يدى (كتاب الله)، الذى تدور حوله الدراسات فيه ، قبل أن يتخرجوا على يد الطامعين فى المناصب من رجاله . ثم إنهم تخرجوا — ويتخرجون — عيونهم على (المواقف) ، لا على (المناصب) ، على النحو الذى تعلموه من هذا الكتاب الكريم . . ومن التاريخ الإسلامى الطويل ، الذى تشكل فى ضوء هذا الكتاب ، قبل أن يتشكل فى ضوء غيره .

فللمسلم أن يفخر بكتابه ، الذى رأى فيه دوما ، نور الله ، وصوت الله يناديه ، ويدله على الطريق ، مهما أظلمت ، وطغت دياجير الظلام .

والنور يأتيه من وضوحه ، فلا ألغاز فيه ، تتطلب كاهنا يفهمه ، ويفهمه للناس .. وإنما هو نزل لكل الناس ، ليفهمه كل الناس .

ولذلك لم يكن فى الإسلام رجل دين ، ورجل دولة ، وزارع ، وعامل صناعى ، ومهندس . . وإنما فيه مسلم ، وغير مسلم ، سواء كان هذا المسلم حاكما أو محكوما ، فلاحا أو زارعا أو عاملا صناعياً أو مهندساً أو طبيباً .. أو عالم دين ، فكل هؤلاء — فيه — رجال دين .

بل إن عاملا بسيطاً محدوداً فى علمه وثقافته ودخله . . قد يكون أقرب إلى الله ، من عالم دين ، لا يعمل بما يعلم ، وإنما هو يجارى السلطان ، وينافق ذوى القوة والنفوذ .

* * *

وعندما فشلت الصليبية العالمية فى محاربة هذا الكتاب المحكم ، الذى يجلو كل القضايا ، بلا تفلسف كاذب ، ولا تزويق مفضوح . . اتجهت إلى حربه من خلال اللغة العربية ، التى لم تعد — فى نظر عملائها — لغة عصرية ،

---

(١) لا يمكن أن ننسى — هنا — أن من بين خريجيه ، الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وحسن البنا ، وسيد قطب ، يرحمهم الله جميعا . كما لا يمكن أن ننسى أن معظم من يحملون الراية اليوم ، فى العالم الاسلامى ، هم من خريجيه ، أو خريجى زملائه من الجامعات الاسلامية الكبرى ، أو من تلاميذ هؤلاء الخريجين أو أولئك .

وصارت أقرب إلى اللاتينية ، لا وجود لها إلا فى بطون الكتب ، كما يزعمون .

وحجتهم فيما يدعون ، أن اللغة العربية المكتوبة ، غير اللغات — أو اللهجات — العربية التى تستخدم فى الحديث ، والتى نراها تختلف فى سوريا ، عنها فى العراق ، أو تونس ، أو المغرب . . أو غيرها ، اختلافاً كبيراً ، او محدوداً .

وينسى هؤلاء ، أن هذه ليست مشكلة اللغة العربية وحدها ، وإنما هى مشكلة كل لغة فى العالم ، حيث نجد — فيها — لغة للأدب ، ولغة للشارع .

فليست اللغة العربية بدعا فى ذلك .

ومن يسمع رجلا انجليزيا ، وآخر أمريكيا ، وثالثاً استراليا ، يتحدثون ، لا يسعه إلا أن يقرر أنهم يتحدثون بلغات ثلاث ، لا بلغة انجليزية واحدة ، مع أن اللغة التى يتحدثون بها جميعاً لغة فصحى ، أى لغة الأدب .

بل إن من يزور الولايات المتحدة الأمريكية ، قد لا يدهش ، حين يرى أن أبناء ولاية جنوبية مثلا ، لا يفهمون مايقوله أبناء ولاية من ولايات الشمال الأمريكى ، إلا بشق الأنفس ، مع أن المتحدث والمستمع ، يتفاهمان باللغة الانجليزية ، لا بغيرها — ولكن اللهجات — أو طرق النطق — تختلف .

والعربى السورى لا يفهم عربياً مغربيا إذا تحدثا بالعامية ، أو باللهجات المحلية . . . ولكنهما عندما يتحدثان باللغة الفصحى ، فإنهما يتفاهمان ، عكس ما نراه فى داخل بلد واحد مثلا ، هو الولايات المتحدة .

فلماذا ترتفع الأصوات الناعقة فى العالم العربى ضد اللغة العربية —

أصوات طه حسين وسلامة موسى وغيرهما وغيرهما ، من عملاء الصليبية العالمية المشهورين .. ولا ترتفع أصوات شبيهة ضد اللغات الحية الأخرى ، فى بلادها ، أو خارج هذه البلاد ؟

والجواب سهل ، لو أننا ألقينا نظرة سريعة ، ولكن فيها وعى وقليل من التفكير ، على الصراع العالمى ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، والذى لا يعدو أن يكون امتداداً لذلك الصراع العالمى ، الذى تفجر فى القرن الحادى عشر .. وهو الصراع الصليبى / الإسلامى .

فكل ما يتصل بالاسلام لابد أن يحارب ، علنا ، وفى الخفاء .

ولا إسلام ، بدون القرآن الكريم .

ولا قرآن ، بلا لغة عربية .

ولما فشلت حرب الإسلام فى الجولة الأولى — فى القرن الحادى عشر — اتجهت إلى حرب القرآن ، ولما فشلت حرب القرآن .. اتجهت الحملة إلى اللغة العربية .

وهى حرب واحدة ، إلا أنها — فى أول أمرها — معلنة مكشوفة ، ومفضوحة بالتالى .. ثم صارت فى آخر أمرها متسترة ، وراء علوم أخرى ، كفقه اللغة ، وعلم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والخط ، والإملاء .. والأدب .

ويشاء الله ، أن تتجه الحملة الضارية إلى اللغة العربية ، فى القرن التاسع عشر ، وأن يكتشف الإرسال اللاسلكى فى مطلع القرن العشرين ، وألا يأتى منتصف هذا القرن العشرين ، إلا وتكون الإذاعة ، من أقوى وسائل التأثير ، فى عالمنا المعاصر .

وحملت الإذاعة معها سموما كثيرة ، ولكنها حملت معها — أيضاً —

منافع جمة، وكان من منافعها، فيما يتصل بقضيتنا المطروحة، أنها قربت بين اللهجات العربية، وقربت بين هذه اللهجات جميعاً، واللغة العربية الفصحى.. لغة القرآن الكريم، التى أعلنت الحرب عليها وعليه.

وتشتعل نار (إصلاح اللغة العربية).. ثم سرعان ما تنطفئ.. شأنها شأن كل نار أشعلها أعداء الإسلام.. ضد الإسلام.

وصدق الله العظيم:

— «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون»(١).

فللمسلم أن يفخر بكتابه.. الذى لا يرى فيه إلا شفاء لأمراض قلبه، ورحمة من الله له، وللمؤمنين به معه، إذا هو اتبع سبيله، وترجمه إلى واقع حى، يحياه ويحيونه:

— «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً»(٢).

* * *

وقد يقول قائل:

وما دخل القرآن الكريم — كتاب الله — بموضوع هذا الكتاب، حتى (نقحمه) فيه؟

ولم يكن فخر المسلم بكتابه — منذ البداية — عبثا، وإنما كان عن قصد.

ذلك أنه لا إسلام — كما سبق — بمعزل عن كتاب الإسلام — القرآن الكريم.

---

(١) قرآن كريم: الحجر — ١٥ : ٩.
(٢) قرآن كريم: الإسراء — ١٧ : ٨٢.

والقرآن الكريم ، ليس كتابا للدين وحده ، وإنما هو كتاب للدين والدنيا معاً ، أو هو — بعبارة أصح — كتاب للدنيا ، وعلى أساس التصرف فى الدنيا ، سيكون حساب الإنسان يوم القيامة ، كما رأينا فى كتابى السلسلة : (الإنسان فى الإسلام ، والإنسان المعاصر)(١) ، و(اليوم الآخر والحياة المعاصرة)(٢) .

أى أنه كتاب للدنيا وحدها ، وعلى أساسها سيكون الحساب فى الآخرة :

— « ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم ، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب ، تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ... ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون »(٣) .

ومن ثم كانت مناقشة أية قضية من القضايا المعاصرة ، فى ضوء القرآن الكريم ، أولا ، وقبل كل شىء .

فللمسلم أن يفخر بكتابه ، الذى يجد فيه — بعد أربعة عشر قرنا من الزمان مضت على نزوله — حلا لكل مشاكله ، وشفاء لكل أمراض عصره ، على تجدد هذه الأمراض ، بتجدد الأيام والليالى ، وعدم ثباتها على حال .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٧١ وما بعدها .

(٣) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٨٩ — ٩٣ .

وما أظن كتابا من الكتب التى سبقته ، بعد أن امتدت إليه أيدى التحريف ، قادراً على تقديم هذا الزاد الذى لا ينضب . . كما لا أظن كتابا غير سماوى، مهما بلغت عبقرية مؤلفه ، قادرا إلا على . . حل مشاكل ساعته وكفى ، إن استطاع — بالفعل — تقديم حل . . لمشاكل .

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود ، أن من حسنات الثقافة الإسلامية ، الموجودة — أساساً — فى هذا الكتاب ، « أنها فى جوهرها ، ثقافة لا تضحى من الإنسان بجانب ، من أجل جانب ، فهو مخلوق للدنيا وللآخرة معاً ، للجسد وللروح معاً ، للنشاط العملى فى هذه الحياة، وللسبحات الروحية، فى سبيل حياة آخرة »(١) ، ومن هنا كان جمع المجتمع الإسلامى — فى نظر الدكتور يوسف القرضاوى — « بين الثبات ، الذى يمنحه الاستقرار ، فلا يتزحزح عن مبادئه ، ولا يتحول عن أصوله ، وبين المرونة ، التى يواجه بها سير الزمن ، وسنة التطور »(٢).

(١) دكتور زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر — الطبعة الأولى — دار الشروق — ١٩٧٦ ، ص ٢١٩ .

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام — الطبعة الأولى — مكتبة وهبة — رمضان ١٣٩٧ هـ — اغسطس ١٩٧٧ م ، ص ٢٣٧ .

مراجع الكتاب

اولا : المراجع العربية :

١ – ا . ك . أوتاواى : التربية والمجتمع – ترجمة دكتور وهيب ابراهيم سمعان وآخرين – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٦٠ .

٢ – ابراهيم خليل أحمد : محمد ، فى التوراة والإنجيل والقرآن – الطبعة الثالثة – مكتبة الوعى العربى (بدون تاريخ) .

٣ – الإيغومانس ابراهيم لوقا : المسيحية فى الإسلام – الطبعة الأولى – مطبعة النيل المسيحية – يوليو ١٩٣٨ .

٤ – ابن سينا : كتاب السياسة – نشره لويس معلوف – مجلة المشرق – ١٩٠٦ م .

٥ – أبو الحسن الندوى : تأملات فى سورة الكهف – الطبعة الثالثة – المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

٦ – أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – الطبعة العاشرة – مطابع على بن على – الدوحة – ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

٧ – الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى – الطبعة الثانية – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٦٥ .

٨ – أحمد عبد الوهاب : إسرائيل حرفت الأناجيل والأسفار المقدسة – الطبعة الأولى – مكتبة وهبة – ١٩٧٢ .

٩ – الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق – نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين – دار الشروق – ١٩٧٥ .

١٠ - دكتور أحمد عزت راجح : أصول علم النفس - الطبعة الخامسة - الدار القومية ، للطباعة والنشر - ١٩٦٣ .

١١ - الأعمال الكاملة ، للإمام محمد عبده - جمعها وحققها وقدم لها : محمد عمارة - الجزء الثالث (الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات) - الطبعة الأولى - المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر - بيروت - أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ .

١٢ - ألبرت أينشتين : النسبية ، النظرية الخاصة والعامة - ترجمة : دكتور رمسيس شحاتة - راجعه : دكتور محمد مرسى أحمد - رقم (٥٥٩) من (الألف كتاب) - الطبعة الثانية - دار نهضة مصر للطبع والنشر - ١٩٦٧ .

١٣ - البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى ، بين النظرية والتطبيق - مكتبة وهبة (بدون تاريخ) .

١٤ - التلمود ، شريعة بنى إسرائيل ، حقائق ووقائع - ترجمة وإعداد محمد صبرى - مكتبة مدبولى (بدون تاريخ) .

١٥ - العهد الجديد .

١٦ - ألفريد زاوبرمان : الاستعمار الاقتصادى ، درس من أوربا الشرقية - الكتاب الخامس من سلسلة (كتب الناقوس) - ترجمة محمد سامى عاشور - تقديم عباس محمود العقاد - مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١٧ - ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول - تعريب شفيق أسعد فريد - مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٧٤ .

١٨ - المعجم الوسيط - قام بإخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون -

وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون -. الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م.

١٩ — ب . ج . وودز : التعاون الاقتصادى وأساليبه — الكتاب الثانى من سلسلة (كتب الناقوس) — مراجعة وتقديم عباس محمود العقاد — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

٢٠ — برتراند رسل : نحو عالم أفضل — ترجمة ومراجعة دريني خشبة، وعبد الكريم أحمد — رقم (٦٨) من مشروع (الألف كتاب) — العالمية للطبع والنشر (بدون تاريخ) .

٢١ — بيتر م. بلاو : البيروقراطية فى المجتمع الحديث — ترجمة اسماعيل الناظر ، ومعد كيالى — دار الثقافة — بيروت — ١٩٦١ .

٢٢ — جورج سول : المذاهب الاقتصادية الكبرى — ترجمة وتقديم راشد البراوى — الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ .

٢٣ — جورج كاونتس : التعليم فى الاتحاد السوفيتى — ترجمة محمد بدران — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

٢٤ — جون ديوى ، وإيفلين ديوى : مدارس المستقبل — ترجمة عبد الفتاح المنياوى — مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) .

٢٥ — جون سومرفيل : « المادية الجدلية » — فلسفة القرن العشرين — مجموعة مقالات ، فى المذاهب الفلسفية المعاصرة ، نشرها : داجوبرت د. رونز — ترجمه عثمان نويه — راجعه : الدكتور زكى نجيب محمود — رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٣ .

٢٦ — دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) — الطبعة الثانية — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٢٧ — حسن عبد العال : التربية الإسلامية ، فى القرن الرابع الهجرى — الكتاب الأول من سلسلة (مكتبة التربية الإسلامية) — إشراف دكتور ابراهيم عصمت مطاوع ، ودكتور عبدالغنى عبـــود — تقديم دكتور عبد الغنى عبود — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٢٨ — دانيل كاتز : أثر الجماعة فى الاتجاهات والسلوك الاجتماعى — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الثامن من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية — بإشراف : ج . ب. جيلفورد — والترجمة بإشراف : الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميـــادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ .

٢٩ — ديل كارنيجى : دع القلق ، وابدأ الحياة — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الخامسة — مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٣٠ — ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الثانية — مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٣١ — رالف لنتون : دراسة الإنسان — ترجمة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٤ .

٣٢ — الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٣٣ — الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الثانى — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٣٤ - دكتور زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر - الطبعة الأولى - دار الشروق - يناير ١٩٧٦ .

٣٥ - دكتور سعيد اسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية - دار الثقافة للطباعة والنشر - ١٩٧٤ .

٣٦- الدكتور سيد أحمد عثمان: « المسئولية الاجتماعية فى الإسلام- دراسة نفسية » - الكتاب السنوى « فى التربية وعلم النفس - بأقلام نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس - عالم الكتب - ١٩٧٣ .

٣٧ - سيد قطب : السلام العالمي والإسلام - الطبعة السادسة - دار الشروق - ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ .

٣٨ - سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام - الطبعة الثالثة - مطبعة دار الكتاب العربي - ١٩٥٢ .

٣٩ - سيد قطب : فى ظلال القرآن - المجلد الأول (الأجزاء ١ - ٤) - الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٤٠ - سيد قطب : فى ظلال القرآن - المجلد الثالث (الأجزاء : ٨ - ١١) - الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٤١ - سيد قطب : فى ظلال القرآن - المجلد الخامس (الأجزاء : ١٩ - ٢٥) - الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٤٢ - سيد قطب : فى ظلال القرآن - المجلد السادس (الأجزاء : ٢٦ - ٣٠) - الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٤٣ - سيد قطب : معالم فى الطريق - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م (بدون ناشر) .

٤٤ - سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى - الطبعة الثانية - دار الشروق - ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٤٥ — صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ .

٤٦ — صالح عبد العزيز ، وعبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس — الجزء الأول — الطبعة الخامسة — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ .

٤٨ — عباس محمود العقاد : أفيون الشعوب ، المذاهب الهدامة — الطبعة الخامسة — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٩٧٥ .

٤٨ — عباس محمود العقاد : الإنسان ، فى القرآن الكريم — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٧٣ .

٤٩ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .

٥٠ — عباس محمود العقاد : الله — مطابع الأهرام التجارية — ١٩٧٢ .

٥١ — عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه — دار الإسلام — القاهرة — ١٩٥٧ .

٥٢ — عباس محمود العقاد : حياة المسيح ، فى التاريخ وكشوف العصر الحديث — رقم (٢٠٢) من (كتاب الهلال) — يناير ١٩٦٨ .

٥٣ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق — الطبعة الثامنة — دار المعارف بمصر — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

٥٤ — عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال (بدون تاريخ) .

٥٥ — عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ .

٥٦ — عباس محمود العقاد : محمد عبده — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

٥٧ — الإمام الأكبر ، دكتور عبد الحليم محمود : فى رحاب الكون ، مع الأنبياء والرسل — العدد (١٢٨) من (كتاب اليوم) — رمضان ١٣٩٧ — ١٥ أغسطس ١٩٧٧ .

٥٨ — عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، تاريخنا القومى فى سبع سنوات (١٩٥٢ — ١٩٥٩) — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٩ .

٥٩ — عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، من كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — المطبعة الشرفية — ١٣٢٧ ﻫ .

٦٠ — دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ .

٦١ — دكتور عبد الغنى عبود : الإسلام والكون — الكتاب الثالث من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٦٢ — دكتور عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام ، والإنسان المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٦٣ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٦٤ — دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ .

٦٥ — دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر والحياة المعاصرة — الكتاب الخامس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٦٦ — دكتور عبد الغنى عبود : أنبياء الله والحياة المعاصرة — الكتاب السادس من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٦٧ — دكتور عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٦٨ — الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام ، بين جهل أبنائه ، وعجز علمائه — المختار الإسلامى، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

٦٩ — عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ، قضية الألوهية ، بين الفلسفة والدين — الطبعة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٧٠ — عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية ، على الإسلام والمسيحية — الطبعة الثانية - دار القلم - ١٩٦٥ .

٧١ — الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة - رقم (٦٢) من (المكتبة الثقافية) - دار القلم بالقاهرة - أول يونية ١٩٦٢ .

٧٢ — فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر (بدون تاريخ) .

٧٣ — دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة إلى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ .

٧٤ — فيليب هـ . فينكس : فلسفة التربية — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — دار النهضة العربية — ١٩٦٥ .

٧٥ - قران كريم .

٧٦ - مارفين فاربر : « علم الظواهر » - فلسفة القرن العشرين - مجموعة مقالات ، فى المذاهب الفلسفية المعاصرة ، نشرها : داجوبرت د . رونز - ترجمه عثمان نوية - راجعه الدكتور زكى نجيب محمود - رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) - مؤسسة سجل العرب - ١٩٦٣ .

٧٧ - ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى - دار التقدم - موسكو - ١٩٦٨ .

٧٨ - مالك بن نبى : المسلم فى عالم الاقتصاد - دار الشروق - ١٩٧٢ .

٧٩ - الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٠ .

٨٠ - محمد جلال كشك : الغزو الفكرى - من (سلسلة مفاهيم إسلامية) - الطبعة الثانية - الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة - مارس ١٩٦٦ .

٨١ - محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) ، إلى أيام (ديان) - مطبعة دار العالم العربى - ١٩٦٨ .

٨٢ - دكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن - تعريب وتحقيق وتعليق : دكتور عبد الصبور شاهين - مراجعة دكتور السيد محمد بدوى - مؤسسة الرسالة ، ودار البحوث العلمية - ١٩٧٤ .

٨٣ - الدكتور محمد عزيز الحبابى : من الحريات إلى التحرر - من مكتبة (الدراسات الفلسفية) - دار المعارف بمصر - ١٩٧٢ .

٨٤ – محمد قطب : قبسات من الرسول – الطبعة الثانية – دار الشروق (بدون تاريخ) .

٨٥ – محمد قطب : منهج التربية الإسلامية – الطبعة الثانية – دار الشروق (بدون تاريخ) .

٨٦ – الدكتور محمد لبيب النجيحى : فى الفكر التربوى – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٧٠ .

٨٧ – الدكتور محمد لبيب النجيحى : مقدمة فى فلسفة التربية – الطبعة الثانية – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٦٧ .

٨٨ – الدكتور محمد منير مرسى : الاتجاهات المعاصرة ، فى التربية المقارنة – عالم الكتب – ١٩٧٤ .

٨٩ – محمود زيدان : وليم جيمس – رقم (١٠) من (نوابغ الفكر الغربى) – دار المعارف بمصر – ١٩٥٨ .

٩٠ – مختار الصحاح ، للشيخ الإمام ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م .

٩١ – د . مصطفى كمال وصفى : « الفكرة الأخلاقية ، بين القانون ، والشريعة الإسلامية » – المسلم المعاصر – مجلة فصلية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الإسلامية – العدد العاشر – أبريل – مايو – يونيو ١٩٧٧ .

٩٢ – مصطفى محمود : الماركسية والإسلام – دار المعارف بمصر – ١٩٧٥ .

٩٣ — مصطفى محمود : رأيت الله — دار المعارف بمصر — ١٩٧٦ .

٩٤ — مصطفى محمود: لماذا رفضت الماركسية، حوار مع خالد محي الدين — المكتب المصرى الحديث — ١٩٧٦ .

٩٥ — ه.ا.ل. فشر: تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) — تعريب أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع — (جمعية التاريخ الحديث) — دار المعارف بمصر — ١٩٥٨.

٩٦ — هيوسيتون واطسون : ثورة العصر ، بحث فى فلسفة السياسة والاجتماع — الكتاب الأول من سلسلة (كتب الناقوس) — ترجمة محمد رفعت — مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

٩٧ — وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل على إلى الإيمان — ترجمة ظفر الإسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الإسلامى — ١٩٧٤ .

٩٨ — وحيد الدين خان : حكمة الدين ، تفسير عناصر ومقتضياته — ترجمة ظفر الإسلام خان — الطبعة الأولى — المختار الإسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع — ١٩٧٣ .

٩٩ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ .

١٠٠ — دكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٥٨.

١٠١ — الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : « دراسة مقارنة ، للإدارة المدرسية » — اتجاهات جديدة ، فى الإدارة المدرسية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ .

١٠٢ — ويلارد أولسون : تطور نمو الأطفال — ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ وآخرين — مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى — عالم الكتب — ١٩٦٢ .

١٠٣ — ويليام بوين سارلز : علم الأحياء الدقيقة — ترجمة دكتور صلاح الدين طه وآخرين — مراجعة يونس سالم ثابت — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ .

١٠٤ — الدكتور يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام — الطبعة الأولى — مكتبة وهبة — رمضان ١٣٩٧ هـ — أغسطس ١٩٧٧ م .

١٠٥ — الدكتور يوسف القرضاوى : غير المسلمين ، فى المجتمع الإسلامى — الطبعة الأولى — مكتبة وهبة بالقاهرة — رمضان ١٣٩٧هـ — أغسطس ١٩٧٧ م .

١٠٦ — الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام — من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) — الطبعة الربعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — AFNASYEV, A. : Marxist Philosophy, A Popular Outline; Third Edition, Progess Publishers, Moscow, 1968.

2 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur - an, Text, Translation, and Commentary, Volume Two; Hafner Publishing Company, New - York, U. S. A., 1946.

3 — AL - NAHDA DICTIONARY, English - Arabic, by : MOHAMMAD BADRAN and I. ZAKI KHORSHID, Compiled by : ISMAIL MAZHAR; First Edition, The Renaissance Bookshop, Cairo (Without Date).

4 — BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revoluution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen & Co. ltd., London, 1923.

5 — BUTTS, R. FREEMAN: A Cultural History of Western Education, Its Social and Intellectual Foundations; Second Edition, Mc Graw - Hill Company, New - York, 1955.

6 — CHKHIKVADZE, V. M. (Edited by) : The Soviet Form of Popular Government; Progess Publishers, Moscow, 1972.

7 — COPELAND, MILES : The Game of Nations, The Amorality of Power Politics; Sixth Edition, Weidenfeld and Nicolson, London, October 1970.

8 — COUNTS, GOERGE S.: The Challenge of Soviet Education; Mc Graw - Hill Book Company, Inc., New - York, 1957.

9 — DEWEY, JOHN : Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education; The Macmillan Company, New - York, 1916.

10 — FOWLER, H. W. and FOWLER, F. G. (Edited by) : The Oxford Dictionary, of Current English, based on the Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by : E. Mc INTOSH, Oxford, at the Clarendon Press, 1951.

11 — HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958.

21 — HITLER, ADOLF : My Struggle, Number II, The Paternester Library, 1937.

13 — KAZAMIAS, ANDREAS M. and MASSIALAS, BYRON G. : Tradition and Change in Education, A Comparative Study (Foundations of Education Series); Prentice - Hall Inc., Englewood Cliffs, N. J., 1965.

14 — KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Pre - history); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948.

15 — LENIN, V. I. : The National Liberation Movement in the East; Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1957.

16 — POSPELOV, P. N. (Edited by) : Vladimir Ilyich Lenin, A Biography; Second Edition, Progress Publishers, Moscow 1966.

17 — THUT, I. N. : The Story of Education, Philosophical and Historical Foundation; Mc Graw – Hill Company, Inc., New – York, 1957 .

18 — TROY, ORGAN : "The Philosophical Bases of Integration". THE INTEGRATION OF EDUCATIONAL EXPERIENCES, The Fifty - seventh Yearbook of the National Society for the Study of Education, Chicago, Illinois, 1958.

19 — WEST, MICHAEL and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary; Twenty – fourth Impression, Longman, 1976.

المؤلف

اولا : من كتب التربية

١ ـ **فى التربية المقارنة** ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٤ (مع الدكتورة نازلى صالح) .

٢ ـ **الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة** ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٨ .

٣ ـ **نحو فلسفة عربية للتربية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٦ (مع الدكتور عبد الغنى النورى) .

٤ ـ **فى التربية الاسلامية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .

٥ ـ **فى التربية المعاصرة** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ ـ **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٨ .

٧ ـ **ادارة التربية ، وتطبيقاتها المعاصرة** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٨ .

٨ ـ **البحث فى التربية** ـ دار الفكر العربى (تحت الطبع) .

ثانيا : من كتب سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)

(وتصدرها : دار الفكر العربى)

١ ـ **العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة** ـ مايو ١٩٧٦ .

٢ ـ **الله ، والانسان المعاصر** ـ فبراير ١٩٧٧ .

٣ ـ **الاسلام والكون** ـ مايو ١٩٧٧ .

٤ ـ **الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر** ـ فبراير ١٩٧٨ .

٥ ـ **اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة** ـ يونية ١٩٧٨ .

٦ ـ **انبياء الله والحياة المعاصرة** ـ سبتمبر ١٩٧٨ .

٧ ـ **قضية الحرية ، وقضايا اخرى** ـ يناير ١٩٧٩ .

الكتاب التالى من السلسلة : **الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة** .
يصدر فى منتصف هذا العام باذن الله .